كتاب الأمة
Al Ummah

٤

حول إعادة تشكيل العقل المسلم

الدكتور عماد الدين خليل

الطبعة الأولى

كتاب الأمة

سلسلة فصلية، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، في دولة قطر.

حول
إعادة تشكيل
العقل المسلم

رمضـان ١٤٠٣هـ.

تقديم

بقلم : عمر عبيد حسنة

■■ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل ، فلا هادي له ، وأشهد أن لا إلـه إلاّ الله ، وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

وبعـــد : فقد كنا طرحنا في تقديمنا لكتاب الأمة الأول « مشكلات في طريق الحياة الإسلامية » للشيخ محمد الغزالي ، أننا نرى من أولى اهتماماتنا ، المساهمة في تحقيق الوعي الثقافي الإسلامي ، وإعادة

بناء عالم الأفكار ، والدعوة إلى وضع ملامح تخطيط ثقافي إسلامي (استراتيجية ثقافية) يُعيد بناء التصاميم الذهنية الإسلامية ويوفر الطاقات ويهندسها ، ويضعها في المجال المُجدي ، لتنتهي بذلك مرحلة الرسم بالفراغ ، التي ورثناها عن مراحل التخلف ، وساهم في تكريسها الغزو الثقافي ، الذي لا نزال نُعاني من آثاره على أكثر المستويات ، بالرغم من الدعاوىٰ الكثيرة التي تريد أن تُثبت عكس ذلك ، ويبقى المطلوب دائماً مزيداً من إلقاء الأضواء الإضافية على جوانب المشكلة الثقافية ، للوصول إلى إعادة صياغة وتشكيل العقل المسلم ، أو إعادة ترتيب العقل العام لمسلم اليوم ، وتخليصه من النظرات الجزئية المتناثرة ، وعجزه عن مواجهة مشكلاته وتحدياته الداخلية منها والخارجية على حد سواء ، على ضوء رؤية إسلامية ذات إخلاص وصواب ، ودراية وفقه ، يتحقق فيها طرفا المعادلة التي استحال علينا حلها طيلة عصر التخلف والسقوط الحضاري والتي استعاذ منها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حيث قال :

اللهم إني أعوذ بك من جلد الفاجر وعجز التقي .

لذلك كان لابد أن نحل المعادلة فنصل إلى مرحلة جلد التقي وعجز الفاجر . . بعيداً عن المواقف والتصرفات الانفعالية الخطابية ، التي تحرك العاطفة ولا ترشد العقل ، وتعتمد التهويل والمبالغة ، ولا تخدم القضية الإسلامية ، بل على العكس قد تساهم مساهمة سلبية غير مقصودة في تخلف المسلمين .

إن محاولة إعادة ترتيب العقل المسلم ، أو إعادة تشكيله أو صياغته ، ومنحه القدرة على التخلص من بعض القيود والأسوار ، قضية تجد في طريقها الكثير من الصعوبات والركام الذي قد يلبس الأمور ويغيب الرؤية الصحيحة للأشياء ، والقدرة على إبصارها ومن ثم تصنيفها ، إنها تتعلق بصميم المشكلة الثقافية التي نعاني منها بعد أن زرعت في نفوسنا

القابلية لها وتواضعت عليها القرون .

لذلك كان لابد من المعالجة المنهجية الحكيمة المتأنية الناضجة ، ولابد من تناول القضية من أكثر من طرف وإلقاء أكثر من ضوء إضافي عليها واستعمال أكثر من وسيلة ، والصبر والاحتمال لما يمكن أن يحدث من خطأ في المقايسة والموازنة ، ومن عجز في الإبصار وعثرات على الطريق .

ولكن مع ذلك تبقى القضية ملحة بعد هذا الواقع الثقافي الهجين الذي انتهينا إليه ، والذي حمل إلينا ما يفيد وما لا يفيد ، ما لنا وما ليس لنا ، واختلطت فيه المفاهيم .

لقد أصبحت الحاجة ملحة لعملية التنقية الثقافية ، وأصبحنا أحوج من أي وقت مضى إلى الذين يحملون عقل المهندس ، ومبضع الطبيب ، وحرقة الوالدة ، على مستوى الفكر والثقافة ، ليقوم بعملية الإخلاء والإملاء ، أو عملية الهدم المسبوقة بمخطط واضح ومدروس لعملية البناء لأن بعض الناس يحسنون الهدم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، ولأنه يتناسب مع طبائعهم وانفعالاتهم واستعجالهم لكنهم يعجزون ولا يحتملون البناء ، لأن البناء يستدعي التأني والصبر والزمن والنضج . . وكلها متطلبات لا تقتضيها عملية الهدم . وتبقى المشكلة في بناء العقلية القادرة على البناء وفي تصويب مسار هذه القدرة .

ونحن نعترف أن ما أصاب العقل المسلم من صدوع ورضوض وكسور وتقطيع ، فصده عن المضي إلى غايته ، وحال بينه وبين أداء رسالته ، لا يمكن أن يعالج بكتاب أو مقال أو محاضرة أو بحث ، وإنما يتعلق الموضوع بصميم المشكلة الثقافية ، والمناخ الثقافي أو عالم الأفكار ، الذي يشكل المحضن الصحي والضروري لإعادة تشكيل العقل وتربيته ومنحه القدرة على العطاء والحماية من الانكسار .

من هنا نعـاود القـول :

بأنه لابد من أن تأتي المعالجة طويلة النفس ، دائبة ومستمرة ، تعطى من الزمن والمحاولة ما تستحقه الأمراض المزمنة من الصبر والأناة وبراعة المعالجة ، ورسم المنهج الصحيح وتعميق أبعاده ، ومتابعة ذلك بأكثر من وسيلة ليتمثله الفرد المسلم فتحصل النقلة المطلوبة ونسترد المواقع المفقودة ، ولا نخدع أنفسنا ، أو نخادع بالفجر الكاذب الذي يعمي على كثير منا حقيقة النور ، وسلامة الرؤية في تحقيق نصر موهوم .

إن العقل الذي لا يتحقق بالرؤية الشمولية الكاملة لا يمكنه الترتيب لانعدام الرؤية الدقيقة لسلم المشكلات التي تواجه عالم المسلمين ، وبالتالي فلا يمكن له القيام بعملية « البرمجة » ، ولا يمتلك القدرة على التصنيف وإعطاء كل مشكلة علامتها ومكانها الذي تستحق والطاقة التي تحتاج ، كما أنه لا يمتلك المقدرة على التمييز بين آثار المشكلات التي تنجم عنها وأسبابها التي أوجدتها ، وأن معالجة الآثار تعني مزيداً من الارتكاس ومزيداً من هدر الطاقات فلابد من اكتشاف الأسباب والعلل ومعالجة هذه الأسباب ، وإلى أي مدى يمكن أن يكون الكثير من المشكلات الفرعية أو الجزئية مظهراً من مظاهر المشكلة العامة ، وأن هذه المشكلات الفرعية سوف تغيب عن عالم المسلمين إذا أحسنا تحديد أبعاد المشكلة العامة وبالتالي أحسنا معالجتها .

إن دعوتنا إلى إعادة صياغة العقل المسلم أو الوصول إلى العقل المرتب لمسلم اليوم هي دعوة مزدوجة في حقيقة الأمر أو ذات بعدين رئيسين :

١ - تصحيح التصور : وذلك بالقدرة على رؤية الخطوط الإسلامية والمسارات الإسلامية متواصلة متكاملة متوازية لا يصطدم بعضها بالآخر لتأخذ بعدها بضبط وربط . . والقدرة على تكوين العقلية

التي تمتلك أبجديات الثقافة الإسلامية فتحسن القراءة الإسلامية التي تستطيع من خلالها أن تفسر الظواهر الاجتماعية تفسيراً إسلامياً ، وتصدر عن تصور شامل للكون والحياة والإنسان ، ولا تقع فريسة للتفسيرات غير الإسلامية ، كما أنها لا تبقى مهوشة غير قادرة على التوازن والاعتدال .

٢ - تخليص العقل : من التركيز على النظرة الجزئية ، لأن التركيز عليها يؤدي إلى آفات عقلية ليس أقلها العجز والانحسار كما ويؤدي إلى تضخيم دور بعض الفروع والجزئيات الأمر الذي يقتل الإبداع ، ويصيب قدرة العطاء عند الإنسان ، ويوقع في التقليد ويحرم صاحبه من الإفادة من جهود الآخرين سواء أكان ذلك بالتعامل مع التراث أم بالقدرة على استلهام الكتاب والسنة لمواجهته حاجات العصر المتجددة .

ونحن لا نريد هنا بمطاردتنا لأصحاب النظرة الجزئية المولعين بالتبعيض ، الملتزمين بالأبعاض ، أن ندعو إلى تسطيح المعرفة العلمية وتمديدها في عصر التخصصات الجزئية والعجز الفردي عن الاستيعاب والأداء الفردي الشامل والمجدي .

وإنما الذي نريد له أن يكون واضحاً أن الكلام هنا في مجال البنية الثقافية ، وهي أمر آخر لا تشكل المعرفة العلمية الأكاديمية إلا حيزاً بسيطاً منه على ضرورته وأهميته .

لذلك نرى أنه لابد من ثقافة عامة ، ونظرة شمولية وعقل مرتب متوازن قادر على النظرة العامة إلى جانب التخصص العلمي ببعض الجوانب . . فالعلم شيء والثقافة التي تستطيع توظيف هذا العلم والإفادة منه شيء آخر .

ويمكن لنا أن نأتي بمثال على ذلك :

إن العالم اليهودي الذي اخترع مادة متفجرة جاءت كثمرة لتخصصه العلمي ، كان إلى جانب هذا التخصص العلمي الدقيق يتمتع بثقافة توراتية ورؤية دينية توجه ملكاته وتوظف تخصصاته للعمل على تحقيقها وذلك في الوصول إلى أرض الميعاد وإعادة بناء الهيكل ، إنه لم يكن عاجزاً عن توظيف مخترعه العلمي من خلال تلك الثقافة ، لقد فرض على الحلفاء في الحرب العالمية أنه سوف لا يبوح لهم بسر المخترع الذي يمكنهم من النصر ما لم يأخذ عليهم العهد في تأييد حق يهود في فلسطين . . وهذا الذي كان ، وقدم هذا العالم لأبناء دينه ما لم يستطع تقديمه جيش من الجهلاء أو العلماء الفاقدين للبصيرة والثقافة ، والذين لا تزيد علومهم عن أن تكون نسخاً جديدة مما قرأوا أو معاجم جامدة في المكتبة ! !

أين هذا من بعض مسلمي اليوم الذين جاءت مكوناتهم الثقافية ثمرة للسقوط الحضاري والتخلف الثقافي والعجز العقلي ؟! حيث يرون بأن أمر الدعوة إلى الله يتعارض مع متابعة التخصص العلمي فيدعون الجامعات وقد يكونون في السنوات الأخيرة ليتفرغوا بزعمهم إلى أمور نشر الدعوة الإسلامية ، وكأن الجهل وعدم النبوغ العلمي أصبح في نظرهم ضربة لازب لنجاح أمر الدعوة الإسلامية !!!

أليست هذه حالة محزنة وثقافة محزنة وواقع أليم ؟! . .

إن الذي يرى الأمور « من فوق » بشكل عام قادر على تحقيق الانسجام وتقدير الحجوم والأبعاد وترتيب الأولويات والتمييز بين الأمراض والأعراض .

أين توهج العقل المسلم وقدراته الهائلة التي رباه عليها الإسلام ؟! أين العقل القائس القادر على إدراك علل الأشياء . . المتبصر بأحوال الأمم والجماعات . . القادر على فهم السنن الاجتماعية والأسباب . . المتتبع للمسار الحضاري في نشوء وسقوط الحضارات . . القادر

على التمييز بين الوسائل والغايات ، وحكم التشريع ، والعلل التي هي مناط القياس . المتدبر لقوله تعالى :

﴿ ... فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ ... ﴾ . . القادر على استيعاب الدرس التاريخي الخاص والعام المخاطب بقوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً ... ﴾ (النساء : ٧١) .

إن إعادة النظر من حين لآخر بسلم المشكلات ، وإعادة تصنيف هذه المشكلات وترتيب الأولويات حماية للجهد واغتناماً لفرصة العمر ، وتوفّر الطاقات والموازنة الدقيقة بين الحاجات والإمكانات وعدم الخلط بين الأمنيات والإمكانات ، وإعادة النظر بالموقع الذي يمكن أن يكون فيه الفرد المسلم ، والعاملون للإسلام ، وإعادة النظر أيضاً بوسائل الدعوة وتطويرها حسب حاجات العصر ومن خلال مشكلاته ، وعدم الضرب في الحديد البارد ، وجعل الاختصاص في خدمة العقيدة والتقدم في قضية الدعوة واكتشاف المنابر المؤثرة ، والمواقع الجديدة التي أخذت مكاناً ومكانة في المجتمع الحديث ، والقدرة على دراسة شبكة العلاقات الاجتماعية والاقتناع بأن التفوق العلمي والتخصص النادر الذي يتحصن صاحبه بالدين القويم هو المطلوب لهذه الأمة ، أصبح ضرورة لا غنى عنها .

لابد من بناء عقلية البرمجة والتخطيط ودراسة الأسباب ، وحصول النتائج واكتشاف مواطن الخطأ والعجز ، وإعادة المحاولة أكثر من مرة ، وقد نخطىء كثيراً ولا نظفر بالمطلوب في أكثر من جولة . . لكن على الأقل نطمئن إلى أننا وقفنا على الجادة وبدأنا طريق العودة إلى الإسلام .

إن عطالة العقل المسلم - مسلم عصر التخلف - وإلغاءه تجاه مناقشة قضية صحة النتائج ومدى توافقها مع المقدمات بوحي من تصور إسلامي

مغلوط ، سيبقي العقل يراوح مكانه لا يبرحه ما لم يحرر من هذه المعضلة ويدرك أبعادها بشكل دقيق وسليم .

صحيح أن أمر ترتب النتائج على المقدمات مملوك لله تعالى ومراد له ، ولو لم يكن ذلك كذلك لانتفت صفة الألوهيـة ، وصحيح أيضاً أن الذي خلق قانون العلل والأسباب والسنن لا يمكن أن يُحكَم به ، ومن هنا كانت المعجزات التي أقل ما يقال فيها أنها خرق لقانون السببية وحصول النتائج دون وجود المقدمات ، لكن من جانب آخر لابد من الاعتقاد أن الله يحكم البشرية به ويحاسبهم على ضوئه ، وإلا توقفت الحياة وتعطلت وظيفة الإنسان في الأرض القائمة أصلاً على تعاطي الأسباب وإتقانها وحسن التعامل معها لتوصل إلى النتائج ، وبطل التكليف وترتب الثواب والعقاب وسادت العبثية .

إن الله لا يحكم نفسه بالأسباب والسنن التي وضعها لكنه هو الذي شرعها للمخلوق ليحاكمه على ضوئها ، إن الأمر يتعلق بأصل قضية التكليف ، ولو عدل المخلوق عن هذه السنن التي شرعها الله إلى غيرها من صناعة البشر لكان محل مساءلة .

إن عدم مناقشة ومراجعة ترتب النتائج على المقدمات أو المسبَّبات على الأسباب تحت شعار « ليس علينا إدراك النتائج » ، والاستسلام لها بهذه السهولة يفقدنا عملية الصواب والتصويب التي لا تتحصل إلا بالعودة إلى دراسة الثغرات التي كانت سبباً في تخلف النتائج واستدراكها : ﴿ ... قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ... ﴾ .

وإن الإيمـان والالتزام .. بقول الرسول ﷺ :

« ... وإذا أصابك شيء فقل قدر الله وما شـاء فعل ... » لا يعني الاستسلام وإنما يعطي نوعاً من الإيجابية حتى لا تمتد العطالة والإصابة إلى المستقبل ، إنه لا يلغي الفاعلية القائمة على تعاطي السنن أصلاً للتوصل

إلى النتائج المطلوبة ، وإنما يوفر الطاقة ويحول دون العجز والسقوط والبكاء على الأطلال .

إن كون النتائج وحصولها أو عدم حصولها من قدر الله أمر يوازي قضية السببية ولا يصدم بها ، لأن الأسباب الموصلة إلى النتائج هي من قدر الله وسننه في الحياة أيضاً .

من هنا تأتي ضرورة إعادة ترتيب العقل المسلم اليوم على ضوء فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما سئل بعد تحوله برعيه من الوادي المجدب إلى الوادي المخصب ليؤمن لغنمه المرعى الصالح : كيف تفر من قدر الله ؟ فيقول : فررت من قدر الله إلى قدر الله ...

أما الفهم النصفي العليل بأن علينا تعاطي الأسباب وليس علينا مناقشـة مدى ترتب النتائج على هذه الأسباب فقضية خطيرة تزري بالعقل المسلم وتتعارض مع سنن الله في الحياة والأحيـاء التي أمرنا بالتزامها ..

إن تسلل مثل هذه القضية الخطيرة إلى حياة المسلمين دفعهم إلى الاستسلام المرفوض شرعاً وعقلاً ، ولقد استراح عقل مسلم اليوم إلى هذه المقولة التي جاءت ثمرة لعصر التخلف لأنها تعفيه من المسؤولية تجاه القضايا التي يخفق فيها ، وتعفية من إعادة النظر لاكتشاف الثغرات وتسديدها لأن الأمر ليس بمقدوره وإنما هو من قدر الله .

كما أعفى نفسه من الاستشعار بالمسؤولية من وجه آخر بإلقاء التبعة على الآخرين في تقصيره وأخطائه دون أن يدري أنه نجّى نفسه ظاهراً ليقع بما هو أسوأ وذلك بالحكم على نفسـه أنه دون سوية المرحلة ودون سوية التعامل مع هذه المرحلة أيضاً !!

لقد هُزم المسلمون في أُحـد وكان على رأس الجيش أكرم الخلق رسول الله ﷺ ، ومع ذلك لا نزال نتلو أسباب الهزيمة النفسية والمادية إلى اليوم

منذ خمسة عشر قرناً . أليست هذه التلاوة لتحقيق الاعتبار والتعرف على السنن لئلا نقع بما وقعوا فيه . أم هل يعيش بعض مسلمي اليوم فوق هذا المستوى !!

والرسول ﷺ يقول : « لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه ماذا عمل به ، وعن ماله من أين اكتسبه وأين وضعه » .

إنه التصرف المبصر بالطاقات التي ملّكنا الله إياها ، وحسن الاستفادة من القدرات التي أتى الحديث على ذكر نماذج منها وحسن التصرف بها مع الاستشعار بالمسؤولية عنها .

إن قضية إدراك الأولويات وحسن قراءة الظروف وتحديد الامكانات من أهم الأمور التي يجب التنبه إليها ، ذلك أنها من هدي هذا الدين حيث نجد في تشريعه الفرض وهو أعلى أنواع التكليف ، ونجد الواجب والسنة والمستحب والمندوب والمباح . . هذا في إطار الأمر ، ويقابله أيضاً في مجال النهي مراتب متعددة للمنهي عنه ، وإن الله تعالى لن يقبل من الفرد نافلة ما لم يؤد الفريضة .

إن هذه « الجدولة » إن صح التعبير أصبحت غائبة عن حياة كثير من المسلمين وحتى بعض العاملين للإسلام ، فنراه يعيش من وراء بعض الجزئيات والفروع وبعض التكاليف الشرعية التي تكون في مرتبة السنن والنوافل أو المستحبات ، ويقاتل في سبيلها وقد يقع في الحرام في سبيل الإصرار على تحصيلها ، كما أنه قد يفوت فرضاً أو حقاً لمسلم في سبيل الانتصار لمندوب .

إن الانشغال بالجزئيات ووضعها في غير موضعها من سلم التكاليف الشرعية بالإضافة إلى أنه دليل على إصابة العقل وقصوره ، ودليل أيضاً على القابلية لاستمرار التخلف . . الأمر الذي يمكن للخصوم من نجاح عملية الغزو الفكري الذي كان همه ودأبه دائماً أن يحرضنا ويثيرنا ويوجهنا

صوب مشكلات هامشية جزئية يشغلنا بها ليتفرد هو بفعل ما يشاء . .

إن ترتيب الشخصية المسلمة وصياغتها وفق معطيات الكتاب والسنة لتجيء شخصية متفردة متميزة قادرة على العطاء ، ووضع الضوابط الصارمة للتصور والسلوك كان من القضايا المحورية التي تركز عليها الكثير من الآداب والأحكام والتدريب عليها من خلال العبادات والطاعات ، وكانت عهدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي أنيطت بكل مسلم في المجتمع الإسلامي ليكون حارساً أميناً عليها ضرورة لازمة لحمايتها وضمان استمرارها .

إن مواقيت الصلاة ، ومقادير الزكاة ، وحساب الأهلّة ، وأحكام الأداء والقضاء ، والحول ، والفوات . . . وكل الضوابط دليل على تنظيم الشخصية أو وضعها ضمن مناخ التنظيم وإدراك الأشياء ومدى أهمية أدائها في وقتها وكيف أن عامل الوقت جزء هام من العملية الحضارية إلى جانب التعرف على السنن وحسن التصرف بالطاقات . . هذه الشخصية التي كانت قبل الإسلام تعيش سائبة بلا قيود ولا حدود ولا ضوابط . .

لقد طرح الإسلام من خلال القرآن والسنة ، رؤية جديدة للحياة ، رؤية تبدأ في داخل الإنسان في عقله وقلبه وروحه ووجدانه وغرائزه وميوله ، وتنتهي في خارجه لكي تصوغه إنساناً جديداً متفوقاً قادراً على التغيير المطلوب في بنية العالم ، والتحكم من خلال ما أبصر من السنن التي شرعها الله بالحركة التاريخية لإعادة البشرية إلى المنهج المتوافق مع سنن الله . . .

من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب « إعادة تشكيل العقل المسلم » للأخ الدكتور عماد الدين خليل الذي نقدم له .

وإذا جاز لنا أن نقول : بأن الإنسان ينتهي اختياره إلى العمل الذي

يحسنه ، وقد هيأه الله لذلك « فكل ميسر لما خلق له » ، وقلنا بأن الأعمال تصطفي القادرين على القيام بها من الناس فيمكن أن تصدق هذه المقولة على أخينا الدكتور عماد الدين خليل الذي يمكن أن تصنف كتاباته جميعاً ضمن إطار إعادة صياغة العقل المسلم ، حيث امتلك من الصفات والمزايا إلى جانب طبيعة التخصص العلمي ما يؤهله للعطاء في مثل هذا الموقع وكأن بين مزاياه الشخصية وتخصصه تواعد والتقاء .

لقد قدم تجربة رائدة في محاولة لتطبيق المنهج الإسلامي في كتابة التاريخ والسيرة ، المنهج الذي يقوم على التوازن بين الذات والموضوع ، ويسعى إلى إحياء الموقف التاريخي ، ويستهدف النظرة الكلية للأحداث والحركات والأشياء ، المنهج الذي يوضح كم هي عظيمة نتائج اللقاء بين الأرض والسماء ، كما أنه كان قادراً على نقد مناهج المستشرقين الذين كتبوا في التاريخ والسيرة من خلال امتلاكه المقياس الإسلامي الذي اكتسبه من القرآن الكريم .. ولعل محاولته الرائدة في كتابة التفسير الإسلامي للتاريخ تعتبر في مصاف المحاولات المتقدمة ، والناجحة في هذا المجال .

إنه يرى أن القرآن الكريم يقدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية كما فعل ابن خلدون على سبيل المثال فأعطى الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلا بعد انقضاء سبعة قرون .. يقول :

لقد أكد القرآن على وجود سنن ونواميس تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها وانتقالها من حال إلى حال . . .

ويرى أن كثيراً من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين وقعوا في خطأ القول : بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج ، وأنه لا توجد

قبله اية محاولة في هذا السبيل ، ومن عجب أن ابن خلدون وقع في الخطأ نفسه عندما أكد في مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال ، وكان أحرى به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق !

وتأتي ميزة كتب وكتابات الدكتور عماد الدين من أنه يكتب في المنهج بشكل عام ويؤكد على ذلك في كل المناسبات ، ويبين دور المنهج الخطير في حركة الإنسان الفكرية والحضارية عموماً ، وأنه بدون منهج ـ الذي هو ثمرة العقل المرتب ـ فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بُذل من جهد وقُدّم من عطاء ، ويرى أن المنهج الذي تشكل العقل المسلم وفق مقولاته يقوم على السببية والقانون التاريخي ، والبحث التجريبي . . والتحقق بالنظرة الشمولية التي منحها الإسلام للإنسان والتي جعلته قادراً على رد سائر المخلوقات إلى مصدر واحد ، الانسجام مع التوحيد والقضاء على التفكك والتجزيء والتقطيع والتسطيح « الإله واحد والخلق واحد » .

ويقول :

« . . . إن الإسلام لم يرد لنا يوماً أن ننعزل عن الحياة ونتخذ إزاءها مواقف السلب والفرار ، الإسلام حركة جهاد دائمة لتغيير العالم ، لقد دعانا إلى النزول إلى الساحة من أول لحظة . . . » .

من هنا نستطيع القول بأنه لم يؤمن بالموقف السلبي الانسحابي الذي يعني الرفض والانكسار ، والذي انتهى إليه كثير من الناس .

لذلك كانت المواجهة بالنسبة له تعني أكثر من موقع وأكثر من وسيلة . . والمعالجة عنده جاءت لأكثر من قضية ، ولعل هذا هو السبب في تعدد الاهتمامات وكثرة الجوانب التي كتب فيها وعرض لها في التاريخ والأدب والفكر والقصة ، والنقد . . . وإن كانت جميعها تصدر عن معين واحد .

وإن إلقـاء نظرة على مؤلفاته أو مكتبته إن صح التعبير لتدل دلالة واضحة على الاهتمامات المتنوعة التي يعيشها وتؤكد ما ذهبنا إليه من أنها جميعاً تصدر عن معين واحد . .

والحقيقـة التي لابد من تسجيلها أنه يتمتع بمعدة هاضمة قادرة على التمثل الثقافي . . الأمر الذي لم يقتصر في كثير من الأحيان على الفكر العربي الإسلامي ، وإنما تجاوز ذلك إلى تقديم نماذج من الفكر الأوروبي بشقيه الشيوعي والرأسمالي من خلال منظور إسـلامي .

وإن كان هنـاك من يرى بأن الدكتور عماد الدين لو وفّر طاقاته لمتابعة نوع واحد من الثقافة وتعميق مفاهيم المنهج والإلحاح على ذلك وتقديم الدراسـات والتطبيقات في ذلك لكان أنفع للمسلمين . . . على أية حال تبقى وجهة نظر لها ما يبررها .

ويبقى لنا أن نعود إلى القـول :

بالرغم من اعتزازنا بهذا الكتاب ، وبقدرة المؤلف على معالجة مثل هذا الموضوع لا ندعي بأننا قدمنا الحل السحري للمشكلة التي يعاني منها العقل المسلم وإنما هي صوىً على طريق الحل ، وتبقى القضية محتاجة إلى المزيد من الأبحاث والدراسات ، ويبقى شعارنا في كتـاب الأمـة قولة سيدنا مالك رضي الله عنه : « كل إنسان يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ . . » .

والله نسـأل أن ينفع بهذا الكتاب ويجزل الثواب ، وهو حسـبنا ونعم الوكيل .

مقدمة

ما الذي أصاب « العقل المسلم » فصدَّه عن المضيّ في الدرب إلى غايته ؟ كيف ضربه العقم ، بعد ذلك التوهج والإبداع اللذين أشعلت فتيلهما كلمات الله وتعاليم رسوله صلى الله عليه وسلم ؟

ما هو طريق الخلاص ؟ وكيف يستعيد هذا العقل (المأزوم) ثقته بنفسه فيحقق حضوره التاريخي بعد غياب القرون الطوال ؟ ما الذي أراد الإسلام أن يقوله وهو يعيد تشكيل العقل العربي ، ويدفع به إلى العالم طاقة حركية فذة ، وقدرة متميزة على الابتكار والعطاء ؟

وهل يتسنىٰ للإيمان أن يقف في المعركة وحيداً أعزل ؟

ما هي النقلات الكبيرة التي حققها هذا الدين فشكّل بها العقل الجديد ؟

وما هي القدرات التي منحها الإيمان للإنسان المسلم فمكّنه من ملاحقة هذه النقلات والتحقق بها ؟

وما هو حجم الدور الذي أدّاه هذا العقل المؤمن على مستوىٰ الأفكار والحضارات ؟

بأية صيغة صُمِّم الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية .. وما هي ملامح وسمات المعطيات التي تمخضت عنه ؟

كيف يعثر المسلمون الضائعون اليوم على مفاتيح الخلاص .. وكيف يقوم المجتمع (التكنولوجي) الإسلامي المرتجىٰ ؟ وكيف تكون الاستجابة التي ستبعث العملاق ؟

أسئلة كثيرة تدور في عقول المسلمين صباح مساء ... يسعى هذا البحث الموجز إلى الإجابة عنها قدر المستطاع ...

وأرجو ألاّ يخطر على بال القارىء أبداً أن يكون هذا الكتاب ثمرة « لرد الفعل » إزاء إلحاح بعض الإسلاميين على الدور الذي يمكن أن تؤديه التربية الروحية والأخلاقية في مجابهة المشكلة .. كما أرجو ألاّ يخطر على باله ، كذلك ، أن يكون الكتاب محسوباً على خط (العقلانية) التي تضع (الإيمان) في المرتبة الثانية أو الثالثة ..

إن هذه النظرة التجزيئية مرفوضة أساساً .. وإن التأكيد على ضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم لا يعني أبداً التقليل من شأن العوامل الأخرىٰ ، لا سيّما وأن التجربة الإسلامية تتعامل مع الإنسان وحدة متوحدة ، ونسيجاً متشابك الخيوط ، وتتأبى على التفكيك والتمزيق والانتقاء ..

ولكن .. لما كان العقل المسلم قد أصيب بكسور خطيرة في العصر الراهن ، ولما كان الإسلام نفسه قد أولىٰ العقل تلك الأهمية القصوىٰ التي تكاد تكون بداهة من البداهات .. فإن النتيجة الطبيعية ، غير المفتعلة ، أن يكون (التأكيد) على إعادة التشكيل العقلي في إطار إسلامي ، ضرورة ملحة وأمراً محتوماً ..

إن المسلم هو (نسيج وحده) عقلاً وروحاً وجسداً ووجداناً .. ولكن منطق الأولويات قد يقضي بالتأكيد على هذا الجانب حيناً ، وعلى ذلك الجانب حيناً آخر .. ولن يقول أحد بأن الدعوة في كلتا الحالتين تتمخض عن ردود الأفعال .. إنما هي الرؤية الواقعية للمشكلة ، والسعي الحكيم لإضاءتها وطرح الحلول المناسبة لها ..

ويبقى الإنسان المسلم (نسيج وحده) كما أراد له دينه أن يكون ..

الفصل الأول

التحولات الكبيرة

[١]

لم يكن تطوراً اعتيادياً بالحسابات التقليدية . . لقد كان بمثابة قفزات في منظوريْ الزمان والمكان . . أما من الداخل ، من تشكّل العقل المؤمن الجديد فقد كان بمثابة رَجّات كهربائية متلاحقة أسقطت عنه الريْن ، ولاحقت زوايا العتمة في طياته ، ودفعت به إلى العالم : **فاعلاً ، متألقاً ، متوهجاً ، قديراً على الفعل والتحقّق والإبداع . .**

لقد تم - بإعجاز مذهل - تجاوز صيغ المعادلات القديمة . . وكسرت الأرقام القياسية ، وبعث عقل جديد عرف كيف يعيد صياغة العالم . .

لقد أريد للعقل المسلم أن يظل متوهجاً منذ لحظة الوعي الأولى حتى

اللحظة التي يطفئه فيها برد الموت ويطمس عليه ظلامه العميق . .

إن العقل البشري قد أعيد تشكيله . . وطرحت تجاهه آفاق شاسعة ، ممتدة الجوانب ، بعيـدة الحدود ، دُعي للتحـرك إليها والاستجـابة لنـداءاتها . . على المستـويات كـافة : **التصـورية ، الاعتقادية ، المعرفيــة ، المنهجية . . والحضارية** . . وكان جديراً حقاً بتلبية النداء ، قديراً على التحقق بمعطياته . .

إنهـا الأمانــــة . . .

ولكن . . وقبل أن ندخل في تفاصيل هذه التحولات الخطيرة في مستوياتها الأربعة ، نجد أنفسنا إزاء هذا السـؤال الملح :

إن « القضية » أو « الدين الجديد » في التحليل النهائي ، تمثل تعبيراً عن التقابل الشامل بين علم الله الذي لا تحدّه حدود وبين قدرة الدماغ البشري ، والكينونة الآدمية عموماً ، على إدراك هذا العلم وهضمه وتمثله وتحويله إلى فعل متحقق ، وسلوك منظور ، وصيرورة تاريخية مبدعة . . . **وإذا استخدمنا التعبير القرآني نفسه قلنا :**

إنه عرض (للأمانة) الكبرىٰ التي لم تطق حملها السماوات والأرض ، وها هي الآن تعرض على الإنسان . .

فهل هو قدير حقاً على الالتزام بالمهمة الصعبة ؟ .

وهل ثمـة ما يمكن أن يخشىٰ من حدوث نوع من الانفصال ، من التباعد أو الثنائية بين معطيات الدين المتقدمة هذه ، وبين القدرة

البشرية ، العقلية والروحية ، على التحمل والتمثل والالتحام ؟

لن نستعير مصطلحاً أجنبياً إن قلنا : **إن الدعوة الجديدة كانت (تقدمية) جداً بالنسبة للعقل البشري** . . . وإنها طرحت من المعطيات ما لم يكن بمقدور هذا العقل ، حتى وهو يدّعي صعوده الذروة في القرن العشرين هذا ، على إدراك بعض جوانبها ، فضلاً عن هضمها وتمثلها وتحويلها إلى فعل وتحقق وصيرورة وسلوك وإبداع . .

إننا هنا إزاء معادلة صعبة من الدرجة الرابعة ـ إذا صحت التعابير ـ . . . **علمٌ غير محدود إزاء قدرات عقلية محدودة** لم تكن تملك الدربة الكافية والمران المطلوب لتقبل نفحات هذا العلم الممدود . .

فكيف تمت الاستجابـة ؟

كيف قدر العقل المسلم على حمل الأمانة وتنفيذ المهمة وأداء الدور ؟

كيف لم يحدث ، في الأعم الأغلب ، ما كان يمكن أن يحدث من انفصال وتباعد وسوء تفاهم بين المطالب الجديدة (المتقدمة) وبين الشَّدّ التاريخي ، والتقاليد السائدة ، والقدرات المحدودة ؟

لقد حدث شيء من « سوء الفهم » هذا . . من عدم التقبل ، والتفاعل ، والالتحام . . ما في هذا شك . . وعلى الطرف الآخر . . كان أحد أهم أسباب تشبث الكفار بمواقعهم يكمن ها هنا : **عدم قدرة عقولهم على استيعاب المضامين والمعطيات والآفاق التي جاء بها ، وطرحها ، وعرضها عليهم الدين الجديد . .**

إلاّ أن الخط الأكثر عمقاً وامتداداً ، أن المنتمين إلى الدين الجديد ،

عبر سلسلة طويلة من الأجيال ، كانت عند حسن الظن .. وحققت القفزة المرجوة في اتجاهاتها جميعاً ..

المســـــارعة ... والســـبق !!

فكيـــف تمت المعجـــــزة ؟

وما هي (الظروف) التي أعانتها على التحقق : استيعاب مذهل للعقل البشري ، لتغيرات جذرية ، مكنته من إعادة التشكل والعمل وفق صيغ جديدة لم يألفها قبلُ إنسان ؟!

إننا نستطيع أن نحظى ببعض الإضاءات المركزة التي قد تعين على الجواب .. إن الإسلام ـ من جهة ـ منح المنتمين إليه قدرات « إضافية » **لتجاوز حيثيات الزمان والمكان والتحقق بالتوافق المنشود .. إنه ، بالسُّلّم ذي الدرجات العريضة الذي رسمه لهم ، والذي يبدأ بالإسلام وينتهي بالإحسان ، مروراً بالإيمان والتقوى** .. شحذ طاقاتهم ، وشدَّ همتهم ، ونفخ في روحهم ، ودفعهم دفعاً إلى التجاوز والاختراق من أجل الوصول إلى القمة التي يطمح إليها كل منتمٍ لهذا الدين : الإحسان .. هنالك حيث التكشف الكامل ، والإبداع التام ، والتقابل الذي لا يحجبه شيء بين الله والإنسان .. (**أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**) ..

إن الناس في الأعم الأغلب ، يمشون إلى أهدافهم ، أو يهرولون إليها ، ولكننا هنا نجد أناساً يركضون .. **لقد بعث الإسلام أجيالاً من العدّائين الذين عرفوا كيف يحطمون الأرقام القياسية وهم يجتازون**

الموانع والمتاريس ، ويقطعون المسافات الطوال ... إن القرآن الكريم نفســـه يصفهم بأنهم ﴿ يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ﴾ وأنهم ﴿ ... لَهَا سَابِقُونَ ﴾ .. فها نحن بصـدد مؤشرين للسـرعة .. والإنجـاز الـذي يختـزل ويحقق أهدافـه القيـاسيـة المـرتجـاة : المسارعـــة .. والسبْق ..

العــــــودة إلى الأصــــــول ...

هكذا تم قطع رحلة الأميال الآلاف وصولاً إلى خط النهاية والفوز العظيم .. وخط النهاية ها هنا هو معانقة المصير المتفرد .. والتحقق بالإحسان ..

إن الغربيين يتفوقون اليوم علينا بأشياء وممارسات كثيرة .. ولا ريب **أن من أبرز هذه الأشياء والممارسات هو قدرتهم على الركض إلى الأهداف** ، وتجاوز المشي أو الهرولة إليها .. على اختزال حيثيات الزمان والمكان .. على الحفاظ على شدهم وتوترهم المعطاء حتى خط النهاية .. على المسارعة في الإنجاز والسبق إلى كل ما هو أكبر وأكثر غناء .. ولن يكون بمقدورنا أن نلاحقهم ونصل إلى مواقعهم ، بله أن نسبقهم ، ما لم نتحقق بالشرط نفسه .. **إننا هنا لا نستعير تقليداً حضارياً من الغرباء ، ولكننا نرتد إلى أصولنا ، نرجع إلى كتابنا وسنتنا وتقاليد أجدادنا الرواد لكي نعرف كيف يكون السبق الحضاري .. والتحقق .. والإبداع !!** ..

إن الانتماء إلى الإســـلام يعني ـ في نهاية التحليل ـ الموافقة المبدئية

على الدخول في عمل مبرمج مرسوم . . والإيمان بالله يعني التحقق بالقناعات الكافية بجدوى هذا العمل . . أما التقوى فهي تلك الطاقة الفذة التي تشعل مصباح الضمير فيظل متألقاً متوهجاً حتى يغيب الإنسان في التراب ما دام يشعر في كل عصب وجارحة وخلية أن الله يرقبه وهو يمارس هذا العمل أو ذاك . . . ويجيء **الإحســان** لكي يضع الإنسان المسلم المؤمن المتقي . . في القمة . . في المصاف الأعلى حيث الإحسان . . الإبداع الكامل في كل ما يقدمه الإنسان . . إنه ها هنا يقف أمام الله سبحانه . . . وإن نداءً كريماً من نبيه ﷺ ينفخ فيه اللحظة تلو اللحظة أن الله يحب منه إذا عمل عملاً أن يتقنه . .

ومن خلال هذا المدرَّج المرسوم بعناية . . عبر هـذا السلَّم ذي الدرجات العريضة يصعد المسلم ركضاً إلى القمة ، ويتمكن ، بالعمل الجمـاعي المبرمـج والاقتناع بحيثياته ، وبيقـظة الضمير المتوهج ، والرغبة العميقة في الإتقان والإبداع ، من الوصول إلى الهدف المنشود : **التحقق بالقيم الكبرى التي جاء بها هذا الدين والوفاق مع معطياتها . . رغم صعوبة هذا التحقق وغلاء ثمنه المبهظ ، ورغم البعد الشاسع الذي كان يفصل ولا يزال ، بين آفاق هذا الدين وبين المنتمين إليه . .**

من جهة أخرى ، فإن الحركة الإسلامية في العالم ، هي في حقيقة الأمر حركة صوب « **الوفاق** » مع نواميس الوجود ، وسنن الطبيعة ، وقوانين الكون . . لقد انشقَّت أجيال بني آدم ، بهذه الدرجة أو تلك ، ولهذا السبب أو ذاك ، عن الناموس . . وجاء الإسلام ـ بمفهومه الشامل ـ لكي يعيدها إلى الانتماء والوفاق . .

من نتـــائج هذه العـــــودة . . .

ولنا أن نتصور حجم النتائج المتمخضة عن هذه العودة . . إن الإنسان بمجرد انتمائه الجاد إلى هذا الدين ، يضع نفسه وقدراته في سياق واحد ، وتوجه واحد ، ومجرىً واحد مع خلائق الله كافة ، وسننه المذخورة في الطبيعة ، ونواميسه العاملة في الكون . . إنه سيتجاوز مواقع الارتطام التي تفتت الطاقة وتضعف فاعليتها . . إلى الانسجام والتناغم مع السنن والنواميس ، سوف يضيف إليها ويأخذ منها . . ومن هذا الشد المتبادل من هذا الوفاق . . من هذا الأخذ والعطاء على الدرب الواحد ، بالقانون الواحد ، صوب الهدف الواحد . . **يتحول الإنسان المؤمن إلى (طاقة) فذة في ميدان الفعل والإنجاز . . قدرة مذهلة في مجال العطاء والإبداع . . شعلة متوهجة يمتد إشعاعها إلى أعماق الذات فيضيئها ويدفعها ، وإلى آفاق العالم فتتبين ملامح الطريق . .** ليس ثمة تفتت في الطاقة ، ولا غموض في الطريق ، ولا ضياع للأهداف . .

يومها ينطلق المسلم ، فرداً وجماعة ، بقوة اختزال مدهشة لمواضعات الزمان والمكان والتراب ، وصولاً إلى أهدافه المرتجاة . .

إن الوفاق الحركي بين الإنسان والكون لهو أحد مفتاحين كبيرين يفسران لنا كيف يتحقق صعود الإنسان ، لا أقول إلى القمر ، ولكن إلى أبعد منه : الآفاق البعيدة التي جاء هذا الدين لكي يقود الإنسان إليها . .

فأما المفتاح الآخر فقد عرفناه قبل قليل : إنه ذلك السلم الذي تشرف

درجته العليا على أرفع ما في العالم من قيم تشرِّف الإنسان وتسعده وتزكيه .. والتي تجعله يقف تجاه الله سبحانه : سعيداً ، متوحداً ، قديراً على الفعل والعطاء والإبداع ..

ومهما يكن من أمر فإن « **المسافة** » التي تفصل الإنسان عن « **الأهداف** » التي تنزل بها الإسلام ، تظل متطاولة ، متباعدة ، صعبة ، نائية ، ولن يكون بمقدور أحد من الناس أن يجتازها بسهولة .. إنه لابد من التحقق بالشروط التي بدونها لن يكون وصول أبداً إلى الأهداف ..

وإن **القرآن الكريم** « **ليحدثنا** » في اثنتين من آياته البينات عن السبب في صدِّ الكثيرين عن نداءات هذا الدين .. وعن أن الصيرورة الزمنية ، بما تحقق من تراكم في الخبرة ، ومزيد تألق في العقل ، كفيلة بالإعانة على تجاوز المعضلة ، والاقتراب أكثر من الهدف المرتجى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ... ﴾ (يونس : ٣٩) .

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ... ﴾ !! (فصلت : ٥٣) .

ومعنى هذا .. أن خبرة البشرية ، التي تزداد تضخماً ، يوماً بعد يوم ، في الكم والنوع ، والتي قد تبدو في كثير من الأحيان ، منساقة وراء نداء الشيطان .. مغرورة .. منتفخة .. مارقة .. متبجحة .. هي نفسها التي ستقرب أجيال بني آدم من الحق .. وهي نفسها التي ستريهم آيات الله في الأنفس والآفاق .. وهي نفسها التي ستعينهم على بلوغ الأهداف ..

إن مرور الزمن بهذا المعنى ، يدفع المسلمين اليوم ـ أو هكذا يجب أن يكون ـ إلى مزيد من التفاؤل ..

وإن تراكم الخبرة ، ونمو معطيات الكشف والابتكار ، ستقرب البشرية من الله ..

إن الزمن في خدمة هذا الدين .. أو هكذا يجب أن يكون ..

والآن .. ما هي أبعاد « **التحولات** » أو « **النقلات** » التي نفذها الإسلام إزاء جيل الروّاد من صحابة رسول الله ﷺ ، **فأعاد بها تشكيل العقل البشري ودفعه إلى العطاء والإبداع ؟**

---

[٢] النقلـة التصـورية الاعتقاديـــة ...

نبدأ بأولى هذه التحولات ، وأكثرها أهمية ، لأنها بمثابة القاعدة التي انبنت عليها سائر التحولات : **النقلة التصورية ـ الاعتقادية .**

فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حرَّرت العقل ، وكرَّمته ، ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة : **تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة** ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون .. كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب ، وتمكين للعقل من التحقق بقناعاتٍ تعلو على معطيات الحس القريب ..

لقدتحدث القرآن الكريم عن هذه النقطة فقال : إنها خروج بالناس **﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾** .. التحول الكامل من الأسود إلى

الأبيض ، والانتقال من النقيض إلى النقيض . . وقال أيضاً بأن الإسلام جاء لتحرير بني آدم :

﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ **(الأعراف : ١٥٧)** . . ونادى أكثر من مرة بأن الدين الجديد هو **(الصراط المستقيم)** وما وراءه فليس سوى التيه ، والاعوجاج ، والضياع ، والهوى ، والضلال . . ولن يقدر عقل مهما أوتي من فطنة على أن يعمل ويبدع ويعطي وهو يتخبط في التيه ويكبل بالأغلال . .

والفاتحون الذين أسقطوا الدول والامبراطوريات ، وغيروا خرائط العالم ، قالوها صراحة : جئنا لكي نخرج الناس من ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . .

إن العقيدة الجديدة جاءت لكي تنقل الإنسان إلى السعة والعدل والتوحيد . . هنالك حيث يجد العقل نفسه ، وقد أعيد تشكيله بهذه القيم ، قديراً على الحركة والفعل عبر هذا المدى الواسع الذي منحه إياه الإسلام ، غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول ما لا يمكن قبوله باسم الدين ، متحققاً بالتقابل الباهر بين الإنسان والله . . حيث يملك وحده التوجه ، والتعبد ، والمصير . .

شيء من الجاهليـــــة . . .

ولكي ندرك البعد الشاسع لهذه النقلة التصورية في مجال العقيدة ،

فإن لنا أن نستحضر في أذهاننا شيئاً من ممارسات العقل العربي في الجاهلية ، وطرائق إدراكه للعالم ، وصيغ تعامله مع ما « تصوره » القوى التي تهيمن عليه ، وتسيره . . ونقارن هذا بالمصاف الذي احتله العقل المسلم بعد إعادة تشكيله بالاعتقاد الجديد .

يقــول **ابن الكلبي** في كتابه المعروف « **الأصنام** » :

(. . . كان الذي سلخ بالمكيين إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم ، تعظيماً للحرم وصبابة بمكة ، فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة . . ثم سلخ ذلك بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم)[١] .

وحدث وأن أصيب **عمرو بن لحي** ـ الذي يلي أمر الكعبة ـ بمرض شديد (فقيل له :

. . . إن بالبلقاء من الشام حمة إن أتيتها برأت ، فأتاها فاستحم بها فبرأ ؛ ووجد أهلها يعبدون الأصنام ، فقال : ما هذه ؟ فقالوا : نستسقي بها المطر !! ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها ، ففعلوا ، فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة)[٢] .

ومن يومها والأصنام تزداد في أروقة مكة وأطرافها بمرور الوقت ،

---

(١) هشام بن محمد بن السائب الكلبي : كتاب «الأصنام» ص٦ ، (تحقيق أحمد زكي ، الطبعة الثانية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ـ ١٩٢٤م) .

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٨ .

والأوثان تتكاثر . . والخرافات التي جعلت من الحجارة آلهة تعبد ويتقرب بها إلى الله . . تنتشر وتمتد وتتشابك لكي ما تلبث أن تغطي حياة العربي كلها في عبادته وعمله . . في ليله ونهاره . . في صحوته ومنامه . .

ويروح ابن الكلبي يحكي لنا عن الأصنام التي اتخذها العرب آلهة : سـواع . . ودّ . . يغوث . . يعوق . . نسـر . . مناة . . اللات . . العزىٰ . . هبل . . أساف ونائلة . . ذو الخلصة . . ذو الكفين . . ذو الشرىٰ . . الأقيصر . . نهم . . رائم . . سعيد . . الفلس . . سعد . . اليعبوب . . باجر . . عميانس . . وعشرات . . بل مئات أخرى من الأصنام والأوثان لم تكن منتشرة في الصحراء وحدها ، بل على العكس ، كانت المدن الأكثر تقدماً هي الساحات التي تعج بها وتزدحم . . وحول كل صنم أو وثن حشد من الخرافات والأوهام والأضاليل ، تراكمت وتشابكت كما تتشابك خيوط العنكبوت في الأماكن المهجورة . . ولا يبخل علينا ابن الكلبي بهذه الترهات . .

كان إسـاف يتعشق نائلة في أرض اليمن ، فأقبلوا حجاجاً ، فدخلوا الكعبة فوجدوا غفلة من الناس وخلوة في البيت ، ففجر بها هناك ، فمسخا ، فأصبحوا ، فوجدوهما مسخين ، فأخرجوهما فوضعوهما في موضعهما ، فعبدتهما خزاعة وقريش ومن حج البيت بعد من العرب)[3] .

وكانت الأوس والخزرج ومن يأخذ بأخذهم من عرب أهل يثرب

(٣) المصدر السابق نفسه ص ٩ .

وغيرها ، يحجون فيقفون مع الناس المواقف كلها ولا يحلقون رؤوسهم ؛ فإذا نفروا أتوا مناة (على ساحل البحر الأحمر) فحلقوا رؤوسهم وأقاموا عنده لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك[4] . . . والأوس والخزرج قبيلتان ممن هداهما الله إلى الإسلام ـ فيما بعد ـ وأعز بهما دينه ونصر رسوله ﷺ . . فليس ما يقول بعضهم من أن الدين القويم لا ينبت في النفوس الملتوية والعقول الضالة ، فإنه ما دام الإسلام قد قام بين العرب فهم بالضرورة ـ ليسوا جاهليين !! . .

وكان هبـل في جوف الكعبة ، قدّامه سبعة أقدح ، مكتوب في أولها « صريح » والآخر « ملصق » فإذا شكوا في مولود ، أهدوا له هدية ، ثم ضربوا بالقدح ، فإن خرج « صريح » ألحقوه ، وإن خرج « ملصق » دفعوه . وقدح على الميت ، وقدح على النكاح ، وثلاثة لم تفسر على أي شيء كانت ، فإذا اختصموا في أمر وأرادوا سفراً أو عملاً ، أتوه فاستقسموا بالقداح عنده ، فما خرج عملوا به وانتهوا إليه[5] . كأن ليس لهم عقول تهديهم إلى ما يفعلون ، ولا إرادة حرة تمكنهم من فعل ما يختارون . . وكأن الشك في صحة أنساب أبنائهم كان هو القاعدة ، واليقين هو الشذوذ ، ولذا كانوا يلجأون للأقداح علّها تقطع شكهم باليقين .

وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان

(٤) المصدر السابق نفسه ص ١٤ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٢٨ .

أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً !![٦] ، وكان لقضاعة ولخم وجذام وأهل الشام صنم يقال له « **الأقيصر** » فكانوا يحجونه ويحلقون رؤوسهم عنده ؛ فكانوا كلما حلق رجل منهم رأسه ألقى مع كل شعرة قبضة من دقيق[٧] . وكان **مالك بن حارثة** يبعث به أبوه باللبن إلى ودّ ، ويقول : **اسقه إلٰهك !! يقول مالك : فأشربه !! ثم رأيت خالد بن الوليد ـ بعدُ ـ كسره فجعله جذاذاً**[٨] ، وهو يذكرنا بتلك القبيلة من بني حنيفة التي كانت إذا جاعت أكلت إلٰهها المصنوع من التمر . .

« واستمرت العرب في عبادة الأصنام ـ **يقول ابن الكلبي** ـ فمنهم من اتخذ بيعاً ، ومنهم من اتخذ صنماً . . ومن لم يقدر ولا على بناء بيت نصب حجراً أمام الحرم وأمام غيره مما استحسن ، ثم طاف به كطوافه بالبيت وسموها « الأنصاب » . . فكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار ، فنظر إلى أحسنها فاتخذه رباً ، وجعل ثلاثة أثافي لقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلاً آخر فعل ذلك ، فكانوا ينحرون ويذبحون عند كلها ويتقربون إليها ، وهم على ذلك عارفون بفضل الكعبة يحجون ويعتمرون إليها ، وكان الذين يفعلون من ذلك في أسفارهم إنما هو للاقتداء منهم بما يفعلون عندها ولصبابة بها »[٩] .

من هذا المستنقع الآسن . . من هذه النقرة الضيقة التي يختنق فيها العقل والروح والوجدان . . من هذه الخرائب المهجورة التي يعشش

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٣ .
(٧) المصدر السابق نفسه ص ٤٨ .
(٨) المصدر السابق نفسه ص ٥٥ .
(٩) المصدر السابق نفسه ص ٣٣ .

فيها التخلف ، والسخف ، والسذاجة ، جاء الإسلام لكي يخرج بالإنسان إلى آفاق التوحيد ، ونضج التصور ، ونقاء الاعتقاد . . فيحرر عقله وروحه ووجدانه ، ويعيد تشكيلها من جديد .

لقد طرحت هذه العقيدة ، أو بنيت بعبارة أدق ، على حشد من القيم التصورية ، كالربانية والشمولية والتوازن والثبات والتوحيد والحركية والإيجابية والواقعية . . تلتئم وتتداخل وتتكامل لكي تشكل نسقاً عقيدياً ، ما بلغت عشرَ معشاره أية عقيدة أخرى في العالم ، وضعية كانت أم دينية . . ولن تبلغه أبداً . . وكما أن هذا « النسق » المحكم يمثل تطابقاً باهراً مع معطيات الفطرة البشرية في أصولها النقية الحرة . . فإنه يمثل في الوقت نفسه تطابقاً مذهلاً مع معطيات العقل المحضة ، وتطلعاته وآفاقه .

إن التصور الإسلامي نسيج وحده . . وإن المغزل الإلٰهي الذي حاكه بإعجاز يصعب تنفيذه على الإنسان . . هو الذي عرف كيف يعيد تشكيل العقل الجديد ، ويدفعه في الوقت نفسه إلى الحركة التي لا سكون بعدها .

لقد منحه الأرضية . . وأعطاه الإشارة . . وسنجده ينطلق ، بعدها ، لكي يصنع المعجزات . .

[٣] النقلة المعرفية . . .

النقلة (**الإسلامية**) الأخرىٰ ، أو التحول الآخر ، تحول معرفي . .

عمل في صميم العقل من أجل تشكيله بالصيغة التي تمكنه من التعامل مع الكون والعالم والوجود ، بالحجم نفسه ، والطموح نفسه ، الذي جاء الإسلام لكي يمنحها الإنسان .

منذ الضربة الأولى في كتاب الله . . الكلمة الأولى . . نلتقي بحركة التحول المعرفي هذه :

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ ٱلْإِنْسَـانَ مِنْ عَلَقٍ . ٱقْرَأْ وَرَبُّـكَ ٱلْأَكْرَمُ . ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ . عَلَّمَ ٱلْإِنْسَـانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (العلق : ١-٥) .

وعبر المسيرة الطويلة ، مسيرة الاثنتين والعشرين سنة ، حيث كانت آيات القرآن تتنزل بين الحين والحين ، استمر « التأكيد » نفسه لتعميق الاتجاه ، وتعزيزه والتمكين للنقلة ، وتحويلها إلى واقع يومي معاش .

إن نداءات القرآن المنبثقة من فعل القراءة والتفكير ، والتعقل والتفقه والتدبر . . إلى آخره . . منبثة في نسيج كتاب الله . . لم تخفت نبرتها أبداً هناك في العصر المكي أو هنا في العصر المدني . . لكأنها معجونة بالخيط الإلهي الذي نسج آياته البينات . .

ليس عبثاً أن تكون كلمة ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ هي الكلمة الأولى في كتاب الله . . وليس عبثاً أن تتكرر مرتين في آيات ثلاث . . وليس عبثاً ـ كذلك ـ أن ترد كلمة ﴿ عَلَّمَ ﴾ ثلاث مرات وأن يشار بالحرف إلى القلم : الأداة التي يتعلم بها الإنسـان . .

وبعـدها ، وعبر المدى الزمني لتنزّل القرآن ، ينهمر السيل ويتعالى

النداء المرة تلو المرة : اقرأ ، تفكر ، اعقل ، تدبر ، تفقه ، انظر ، تبصّر . . إلى آخره . . ويجد العقل المسلم نفسه ملزماً ، بمنطق الإيمان نفسه ، بأن يتحول ، أن يتشكل من جديد لكي يتلاءم مع التوجه (المعرفي) الذي أراده الدين الجديد :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـاهُ فَٱتَّبِعْ قُرْآنَـهُ ﴾ (القيامة : ١٨) .

﴿ وَقُـرْآناً فَـرَقْنَـاهُ لِتَقْـرَأَهُ عَلَىٰ ٱلنَّـاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ (الإسراء : ١٠٦) .

﴿ فَٱسْـأَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَأُونَ ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (يونس : ٩٤) .

﴿ عَلِمَ أَلَّنْ تُحْصُـوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْآنِ ﴾ (المزمل : ٢٠) .

﴿ وَإِذَا قُرِىءَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٤) .

﴿ سَـنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ (الأعلى : ٦) .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ؟ (محمد : ٢٤) .

﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ؟ (المؤمنون : ٦٨) .

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَـاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (ص : ٢٩) .

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ ﴾ (المدثر : ٥٥-٥٦) .

﴿ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ (الزخرف : ١٣) .

﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ ؟ (مريم : ٦٧) .

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴾ (الصافات : ١٣) .

﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ (الأحزاب : ٣٤) .

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُم تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة : ٦٣) .

﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِنَ ٱلْكِتَابِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ (البقرة : ٢٣١) .

﴿ وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَسْطَةً فَٱذْكُرُوا آلَاءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأعراف : ٦٩) .

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق : ٤٥) .

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الذاريات : ٥٥) .

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ (الكهف : ٥٧) .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً ﴾ (الفرقان : ٧٣) .

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ؟ (الأنعام : ٨٠) .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَلَا ٱلْمُسِيءُ قَلِيلاً مَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (غافر : ٥٨) .

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (الرعد : ١٩) .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (الزمر : ٩) .

﴿ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة : ٢٢١) .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (الزمر : ٢٧) .

﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (البقرة : ٢٦٩) .

﴿ وَٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (آل عمران : ٧) .

﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (الأنعام : ١٢٦) .

﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ٱلْكِتَابَ هُدىً وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾ (غافر : ٥٤) .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (ق : ٣٧) .

﴿ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (الحاقة : ١٢) .

﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴾ (المزمل : ١٩) .

وسوف نلتقي في الحديث عن (النقلة المنهجية) بحشود أخرى من الآيات القرآنية عن الأفعال المعرفية الأخرى : النظر ، السمع ، البصر ، التعقل ، التفكر ، التفقه ، .. العلم ... إلخ ..

بل إن نسيج القرآن الكريم نفسه ، ومعطياته المعجزة ، من بدئها حتى منتهاها ، في مجال العقيدة ، والتشريع ، والسلوك ، والحقائق « العلمية » تمثل نسقاً من المعطيات المعرفية كانت كفيلة ، بمجرد التعامل المخلص الذكي المتبصر معها ، أن تهز عقل الإنسان وأن تفجر ينابيعه وطاقاته وأن تخلق في تركيبه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء ..

لقد كان القرآن الكريم يتعامل مع خامةٍ لم تكن قد حظيت من « المعرفة » إلا بالقسط اليسير .. مع جيل من الناس لم يبعد ـ بعد ـ عن تقاليد الجاهلية ، وقيمها ، وطفولتها الفكرية .. لكنه قدر ، بقوة الإيمان المعجون بالدعوة الجديدة ، على أن يعلمهم فعلاً .. وذلك بأن

يعيد تشكيل عقولهم لكي تكون قديرة على استيعاب المضامين الجديدة ، مدركة للأبعاد الشاسعة التي جاء هذا الدين لكي يتحرك الإنسان صوب آفاقها الرحبة .. وما كان ذلك ليتحقق لولا إشعال فتيلة التشوق المعرفي المسلم ، ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل ..

لقد انتهى عهد الاستسلام والسكون والرضى بأوساط الأشياء .. وجاء عهد القلق والحركة .. بحثاً عن الكمال الذي يليق بمعطيات الدين الجديد ..

لقد حرث الإسلام ، في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، الأرض البكر ، بعد أن انتزع حشائشها الضارة ودغلها ، ومنحها الماء ، وبذر فيها البذور الصالحة للإنبات .. ولن تكون النتيجة ، بعدها ، إلّا حدائق ذات بهجة ، وفاكهة ، وأبّا .. ولن يكون الحصاد إلّا جنىً حلواً وشهداً ..

إن الإسلام لا يهتم بالتفاصيل .. ولكنه يسعى إلى تكوين « بيئة » عمل وإنجاز تتضمن الشروط والمواصفات كافة التي تمكنها من العطاء .. وها هنا ، في حقل التوجه المعرفي ، تمكن الإسلام من خلق هذه البيئة .. فبعث أمة من الناس لا يزال عقلها يعمل ويكد ويتوهج .. حتى أنار الطريق للبشرية يوم كانت تدلج في ليل بهيم ..

إن النهار الذي أطلعته حضارة الإسلام الآتية .. ما كان له أن يطلع لولا الشعلة التي مسّت عقل كل مسلم ودفعته إلى التألق وهو ينطلق لتعزيز يقينه الجديد ..

[٤] النقلـــــة المنهجيـــــة . . .

أما النقلة الثالثة ، فلم تكن لتقل عنهما خطراً بحال من الأحوال . . وهي ترتبط بشكل ما ، بالنقلتين السابقتين ، وتنبثق عنهما في الوقت نفسه . . إنها النقلة المنهجية . . ونحن نعرف اليوم ، كم يؤدي « **المنهج** » دوراً خطيراً في حركة الإنسان الفكرية . . والحضارة عموماً . . ونعرف أنه دون « **منهج** » فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد وقدم من عطاء . .

والنقلة المنهجية التي أتيح للعقل المسلم أن يتحقق بها ، أن يتشكل وفق مقولاتها ومعطياتها . . امتدت باتجاهات ثلاثة : **السببية ، القانون التاريخي ، منهج البحث الحسي (التجريبي)** .

فلنقف قليلاً عند كل واحدٍ من هذه الاتجاهات لنتلمس أبعاد المنحة الكبيرة التي قدمها الإسلام للعقل البشري ، فمكّنه من إعادة التشكّل ، وأعطاه من الأدوات ما عرف به كيف يحيلها إلى إبداع حضاري موصول .

(أ) الســـــببية . . .

من خلال التمعن في نسيج كتاب الله نجد كيف منحت آياته البينات العقل المسلم رؤ ية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود . . تربط ، وهي تتأمل وتبحث وتعاين وتتفكر ، بين الأسباب والمسببات . . تسعى

إلى أن تضع يدها على الخيط الذي يربط بين الظواهر والأشياء في هذا الحقل أو ذاك ، وفي هذه المساحة أو تلك . . **لقد أراد القرآن الكريم أن يجتاز بالعقل العربي مرحلة النظرة التبسيطية ، المسطحة ، المفككة التي تعاين الأشياء والظواهر كما لو كانت متقطعة معزولة منفصلاً بعضها عن بعض . .**

وهي خلال ذلك لا تملك القدرة على الجمع ، والمقارنة ، والقياس ، والتقاط عناصر الشبه ، وعزل عناصر الاختلاف . . لا تملك إمكانية التركيب والاختزال والتركيز للوصول إلى الدلالات النهائية للظاهرة من خلال معاينة ارتباطاتها وعلائقها بالظواهر الأخرى . .

ولقد تمكن القرآن الكريم بطرقه المستمر على العقلية التبسيطية أن يعيد تشكيلها لتبعث من جديد بالصيغة التي أرادها لها : عقلية تركيبية ، تملك القدرة على الرؤ ية الاستشرافية التي تطل من فوق على حشود الظواهر بحثاً عن العلائق والارتباطات ، ووصولاً إلى الحقيقة المرتجاة . .

بل إن إحدى طرائق القرآن المنبثة عبر سوره ومقاطعه من أقصاها إلى أقصاها ، هي : **التأكيد على ضرورة اعتماد هذه الرؤية السببية للظواهر والأشياء من أجل الوصول إلى معجزة الخلق ووحدانية الخالق سبحانه . . إذ بدون هذه القدرة على الربط بين الأسباب والمسببات فإن العقل المؤمن لن يكون قادراً على التحقق بالقناعات الكافية** ، ولن يكون بمقدور آيات الله المنبثة في الطبيعة والعالم والوجود أن تحدث فينا هزة الإيمان العميق المتمخض دوماً عن اكتشاف الارتباط المحتوم بين معجزة الخلق وبين الخالق . .

لن يتسع المجال لاستعراض الآيات التي نادت المسلمين مراراً للتحقق بهذه الرؤية التركيبية ، والربط بين الأسباب ، فهي كثيرة جداً ، خاصة في العصر المكي حيث كانت ضرورات التربية العقيدية تقتضي التأكيد على تكوين عقليات كهذه .. تقارن وتـركب وتربط بين الأسباب ..

ومن خلال هذا التأكيد ، ذي الإرتباط العميق بالموقف الإيماني عموماً ، أصبح العقل المسلم يرىٰ في رؤية كهـذه ضرورة من الضرورات ، بل بداهة من البداهات .. وراح يمارسها صباح مساء ، ويتمرن على الأخذ بها ، والعمل وفق شروطها ، حتى غدت بالنسبة له تقليداً عقلياً سائداً .. وغدا الكون والعالم والطبيعة والوجود ـ في مقابل هذا ـ سلسلة من الظواهر والمعطيات يرتبط بعضها ببعض بأوثق الأسباب ..

لقد انتهى عهد التفكك ، والعزلة ، والتبسيط ..

إن الكون الذي هو تعبير عن إبداع الخالق ، تحكمه قوانين واحدة ، وأسباب واحدة ، ونواميس واحدة ، تصدر عن إرادة واحدة ..

ولن يتحقق فهمه أبداً ما لم ينظر إليه من خلال رؤية عقلية ، تعرف كيف تجمع وتلم ، وتقارن وتختزل وتركب .. وصولاً إلى الحقائق التي تبغيها ..

إن الكشف عن (السببية) والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشري ، وإضافة قيِّمة مكنته من إعادة التشكل في صيغ أكثر قدرة على العطاء والإبداع ..

(ب) القانونيـــة التاريخيـــة ...

ولأول مرة في تاريخ الفكر يكشف الغطاء أمام العقل البشري عن حقيقة منهجية على درجة كبيرة من الخطورة : إن التاريخ البشري لا يتحرك فوضىٰ وعلى غير هدف ، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء .. سواء بسواء .. وإن الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة ، وإنما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك ، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك ..

القانون يحكم التاريخ .. تلك هي المقولة التي لم يكن قد كشف النقاب عنها قبل نزول القرآن الكريم .. إن كتاب الله يقدم أصول « **منهج** » متكامل في التعامل مع التاريخ البشري ، والانتقال بهذا التعامل من مرحلة العرض والتجميع فحسب ، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية ـ التاريخية ، كما فعل ابن خلدون ـ فيما بعد ـ على سبيل المثال ، فأعطى بذلك الإشارة لغيره من فلاسفة التاريخ الذين ما تلقوا إشارته تلك وبنوا عليها إلّا بعد انقضاء خمسة قرون ؛ وهذا يتمثل بالتأكيد المستمر في القرآن على قصص الأنبياء ، وتواريخ الجماعات والأمم السابقة ، وعل وجود « **سنن** » و « **نواميس** » تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها ، وانتقالها من حال إلى حال . ولقد وقع كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ المعاصرين في خطأ القول بأن (ابن خلدون) هو أول من مارس هذا (المنهج) وأنه لا توجد قبله أية محاولة في هذا السبيل .

إن « المنهج » الجديد الذي يطرحه القرآن الكريم يؤكد ، أكثر من مرة ، على أن « التاريخ » لا يكتسب أهميته الإيجابية إلاّ بأن يتخذ ميداناً للدراسة والاختبار ، تستخلص منه القيم والقوانين التي لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها ، وليس الأسلوب الفني في العرض سوى جسر تحمل عليه العروض والنتائج النهائية لأية ممارسة في حقول التاريخ . .

إن القــرآن يطرح على العقل البشري ـ إذاً ـ ولأول مرة ، مسألة « السنن » و « النواميس » التي تسيِّر حركة التاريخ وفق منعطفها الذي لا يخطىء ، وعبر مسالكها « المقننة » التي ليس إلى الخروج عليها سبيل ، لأنها منبثقة من صميم التركيب البشري ، ومعطياته المحورية الثابتة فطرة وغرائز وأخلاقاً وفكراً وعواطف ووجداناً ، ومن قلب العلاقات والوشائج والارتباطات الظاهرة والباطنة في العالم الذي يتحرك فيه الإنسان ، والتي تتجاوز في اتساعها وشموليتها نسبيات البيئة الجغرافية ، أو الوضع الاقتصادي لكي تتسع للفعل التاريخي نفسه ، الفعل القائم على القيم الثابتة الدائمة في كيان الإنسان ، والتي تنبثق عنها المواقف التاريخية سلباً وإيجاباً ؛ ومن ثم فإن حكمها على هذه « الحركة » يجيء منطقياً تماماً ، لأنه أشبه « بالجزاء » الذي هو من جنس « العمــل » ، ومن خامه الأصيل ، وعادلاً تماماً لأنه يكافىء الإنسان ، فرداً وجماعة ، بما يوازي طبيعة الدور التاريخي الذي مارسوه ، حتى لكأن القرآن يلفت أنظارنا إلى أننا نستطيع أن نرتب على مجموعة معينة من الوقائع التاريخية ، سلفاً ، نتائجها التي تكاد تكون محتومة لارتباطها الصميم بمقدماتها اعتماداً على استمرارية السنن التاريخية ودوامها . .

وعلى العكس فإن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن ، سوف يَؤُول إلى تميّع الحركة التاريخية ، وعدم انضباطها جزائياً ، وبالتالي يؤ ول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل . . ومن أجل أن نطمئن يبين لنا القرآن في أكثر من موضع ثبات هذه السنن ونفاذها وعدم تبدلها أو تحولها ، إنها موجودة أساساً في صميم التركيب الكوني ، وفي قلب العلاقات المتبادلة بين الإنسان والعالم . . ولم يفعل القرآن سوى أن كشف عنها النقاب وأكد وجودها وثقلها في حركة التاريخ ، وأنها لا تأسر نفسها في تفاصيل وجزئيات موقوتة ، بل تمتد وتمتد ، مرنة منفتحة شاملة ، لكي تضم أكبر قدر من الوقائع ، وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات ، وتبقى دائماً الحصيلة النهائية ، والرموز المكثفة ، والدلالات الكبرى لحركة التاريخ .

إنها تريد أن تقول لنا ـ باختصار وتركيز بالغين ـ إن حركة أية جماعة بشرية في التاريخ ليست اعتباطية ، وإنها ، بما قد ركب فيها من قوى العقل والروح والإرادة ـ خلافاً لما هو سائد في العوالم غير البشرية ـ مسؤولة مسؤولية كاملة خلال حركتها تلك ، حيث ينتفي العبث واللاجدوى ، وحيث تتحرك الحرية من شكلها المهوش المتميع الغامض ، إلى عمل مدرك مخطط يقف به الإنسان أمام الله بمسؤوليته تجاه العالم لكي يحقق إعماره ورقيه وتقدمه ، وفق ما يجيء به أنبياء الله ، حيناً بعد حين ، من تعاليم وخطط تأخذ بيد الجماعة البشرية في هذا الطريق . . وحيثما انتفت هذه العلاقة الإيجابية بين الإنسان والله والعالم ، وأُسيء استخدام « الحرية » ، وضاعت المسؤولية ، وانعدم التخطيط المدرك الواعي ، وتميعت القيم الأخلاقية المنبثقة عن قوى

العقل والروح والإرادة ، حيثما جاء الجزاء الموازي لجنس العمل ، وآل الأمر بالجماعة البشرية إلى التدهور والتفتت والانهيار :

﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب : ٦٢) .

﴿ ... فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (فاطر : ٤٣) .

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ (الإسراء : ٧٧) .

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَو يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً ﴾ (الكهف : ٥٥) .

﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً . سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الفتح : ٢٢-٢٣) .

السنن ... والقرآن ...

والقرآن الكريم لا يؤكد ثبات هذه السنن وديمومتها فحسب ولكنه يحولها في الوقت نفسه إلى دافع حركي يفرض على الجماعة المؤمنة أن تتجاوز مواقع الخطأ التي قادت الجماعات البشرية السابقة إلى الدمار ،

وأن « تحسن » التعامل مع قوى الكون والطبيعة ، مستمدة التعاليم والقيم من حركة التاريخ نفسه :

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٧-١٤١) .

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (الأنعام : ٣٤) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ (محمد : ١٠) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ ، يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾ (السجدة : ٢٦) .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ﴾ (الرعد : ٦) .

(ج) منهـج البحـث الحسِّي ـ التجـريبي :

ولكن ، لا الكشف عن السببية ولا القانونية التاريخية ، يعدل الكسب المعرفي القيِّم الذي أحرزه العقل المسلم خصوصاً ، والعقل البشري عموماً ، والذي تمثل بمنهج البحث الحسي ـ التجريبي الذي كشف النقاب عنه ، ونظمه ، وأكَّده ، كتـاب الله . .

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم ، وارتباطاتهم الكونية عن طريق « النظر الحسي » إلى ما حولهم ، ابتداءً من مواقع أقدامهم وانتهاءً بآفاق النفس والكون ، وأعطى للحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب . . . قال له :

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ (الإسراء : ٣٦) ، وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله . . إلى طعامه :

﴿ فَلْيَنْظُرِ ٱلإِنْسَـانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ . أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبّاً . ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلأَرْضَ شَقّاً . فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً . وَعِنَباً وَقَضْباً . وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً . وَحَدَائِقَ غُلْباً . وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ (عبس : ٢٤-٣١) . . إلى خلقه :

﴿ فَلْيَنْظُـرِ ٱلإِنْسَـانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾ ؟ (الطارق : ٥) . . إلى الملكوت :

﴿ أَوَلَمْ يَنْـظُرُوا إِلَىٰ مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـوَاتِ وَٱلأَرْضِ ﴾ ؟ (الأعراف : ١٨٥) . . إلى التاريخ وحركة الإنسان في الأرض :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ (غافر : ٨٢) . . إلى خلائق الله :

﴿ أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ ٱلإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ (الغاشية : ١٧) . . إلى آياته المنبثة في كل مكان :

﴿ ٱنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلآيَاتِ ﴾ (المائدة : ٧٥) . . إلى النواميس الاجتماعية :

﴿ ٱنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (الإسراء : ٢١) . . إلى الطبيعة وهي تنبعث من قلب الفناء برحمة من الله ومقدرة :

﴿ فَٱنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ (الروم : ٥٠) . . إلى الأثمار وهي تتدلى من غصون الأشجار :

﴿ ٱنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ (الأنعام : ٩٩) . . إلى الحياة الأولى كيف بدأت ، وكيف نمت وارتقت :

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت : ٢٠) . . ودعاه أن يحرك « سمعه » باتجاه الأصوات لكي يعرف ويميز ، فيأخذ أو يرفض ، فمن الاختيار البصير ينبعث الإيمان :

﴿ لاتَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ ﴾ (**الأنفال : ٢١**) .

وانتقل القرآن خطوة أخرى ، وسألهم أن يحركوا « **بصائرهم** » تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية ، سمعية وبصرية ولمسية . . . لا حصر لها ، ومن ثم تتحمل البصيرة مسؤ وليتها في تنسيق هذه المدركات ، وتمحيصها ، وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى « **الحق**» الذي تقوم عليه وحده نواميس الكون والخليقة :

﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ﴾ (**الأنفال : ١٠٤**) . . إن العقل والحواس جميعاً مسؤ ولة ، لا تنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعة البحث والتمحيص والاختيار . . والإنسان مبتلى بهذه المسؤ ولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام :

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (**الإنسان : ٢**) .

ومن ثم تتوالى الآيات ، تؤكد مرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفردها ، وأن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات ، بفتحه هذه النوافذ على مصراعيها ، باستغلاله قدراته الفذة حتى النهاية ، سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على السواء ، لأن هذه الانتصارات ستبوّئه مركزه المسؤ ول سيداً على العالمين ، وخليفة الله في الأرض ، وأنه بتجميد

هذه الطاقات ، وقفل نوافذها ، وسحب الستائر والأغشية عليها ، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد . . منزلة البهائم والأنعام :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (**محمد : ٣**) .

وحشد آخر من الآيات بلغ ما يقرب الخمسين ، حث على تحريك « **العقل** » ، المفتاح الذي منحه الله بني آدم ، والذي يتوجب اعتماده لكي تمضي الكشوف والمعطيات التجريبية إلى غايتها :

﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (**البقرة : ١٧**) . . وآيات أخرى دعت الإنسان إلى « **التفكير** » العميق ، المتبصر ، المسؤ ول ، بكل ما يحيط به من ظواهر وأشياء ، وطاقات وموجودات :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ ؟ (**الأنعام : ٥٠**) .

وما يقال عن « **التفكّر** » يمكن أن يقال عن « **التفقه** » ، وهي خطوة عقلية أبعد مدىً من التفكير ، تجعل الإنسان أكثر وعياً لما يحيط به ، وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده وعلائقه في الكون ، كما تجعله متفتح البصيرة دوماً ، مستعداً للحوار المسؤ ول إزاء كل ما يعرض له على صفحة العالم والوجود :

﴿ فَمَا لِهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً ﴾ ؟ (النساء : ٧٨) .

وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد « **البرهان** » و « **الحجة** » و « **الجدال الحسن** » للوصول إلى النتائج الصحيحة ، القائمة على

الاستقراء والمقارنة ، والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الحسية الخارجية المتفق عليها ، والقدرات العقلية التي تعرف كيف تتعامل مع هذه المعطيات :

﴿ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (البقرة : ١١١) .

هكذا يبدو العلم بمفهومه الواضح الشامل ، فاعلية في غاية الأهمية في المجتمعات التي ترتضي الدين ، أو المنهج الإلهي طريقة لها في الحياة . . ولابد أن نضيف هنا حقيقة أخرىٰ غاية في الأهمية ، تلك هي أن كلمة « **العلم** » وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على « **الدين** » نفسه الذي علمه الله أنبياءه عليهم السلام . . على النواميس التي يسيِّر الله بها ملكوته العظيم . . على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله في « **أم الكتاب** » ، وكإشارة إلى القيم الدينية التي نزلت من السماء في مقابلة الأهواء والظنون البشرية ؛ ومن ثم يغدو العلم والدين سواء في لغة القرآن ؛ إن كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة ، وتبصرنا بمواقع العلم والدين الفسيحة ، الممتدة ، المتداخلة كما أراد لها أن تكون ، لا كما يريد لها الوضعيون الذين يسعون جهدهم للفصل بين الكلمتين :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (البقرة : ١٢٠) .

﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران : ٧) .

﴿ مَا لَهُم بِهِ مِن عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ﴾ (النساء : ١٥٧) .

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ (الأحقاف : ٢٣) .

ولا يسعنا هنا استعراض حل ما ورد من آيات في هذا المجال ، أو حتى الإشارة إليه ، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة ﴿ عِلْمٍ ﴾ بتصريفاتها المختلفة ، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمائة والخمسين .

ومن ثم فلا يتصورنَّ أحد أن الإسلام ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الأخلاقية والروحية فحسب . . إننا بإزاء آيات عديدة تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة ، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة ، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات . . إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف ، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها . . . بين تحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم على المستوى المادي . . ولم يفصل الإسلام ـ يوماً ـ بين هذا وذاك . .

الفصل الثاني

أبعاد التحقق التاريخي

والنتيجة المحتومة التي تمخضت عن هذه التحولات الحاسمة عقيدياً ومعرفياً ومنهجياً .. تشكل عقل جديد قدير على الاستيعاب والفعل والإضافة والإبداع ..

وهكذا ، فإن النقلة أو التحول الحضاري الكبير الذي نفذه المسلمون ، وتحققوا به عبر قرون التألق والعطاء ، إنما جاء ثمرة « **للعقلية** » التي صاغها الإسلام ومكنها بتحولاته الخطيرة تلك من أن تؤدي دورها الشامل في تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية ..

ولم تكن هذه النقلة الحضارية ، بحال ، أقل خطورة من النقلات

الثلاث التي مهدت لها وشقَّت أمامها الطريق . . فلقد كانت على درجة من الثقل والامتداد ما جعلها أمراً تاريخياً مشهوداً ، قدَّم إسهامه المتنوع الغزير ، ليس فقط على مستوى الجغرافية الإسلامية ، وإنما جغرافية العالم الحضاري كلها . .

إن الأفكار ، أو النشاط العقلي ، بعبارة أخرى ، هو الذي يسهم جنباً إلى جنب مع قوى الإنسان الأخرى وطاقاته المتشعبة ، في صناعة الحضارات وليس العكس مما تقول به بعض النظريات التي أكدت رجعيتها آخر معطيات العلم الحديث . . . صحيح أن الصيغة الحضارية تؤثر في العملية العقلية ، وتؤدي دوراً أكيداً في توجهاتها . . ولكن مفتاح الحركة ، والكلمة الفاعلة فيها هي للعقل أولاً وأخيراً . .

وهكذا فإن قيام الدين الجديد بتشكيل عقل إسلامي فعال ، بالمواصفات التي تحدثنا عنها ، ومن خلال تحولات جذرية على المستويات كافة ، العقيدية والمعرفية والمنهجية . . كان بمثابة إرهاص لمولد طاقة حضارية فذة ، كان لابد أن « تلد » عطاءها المتواصل بعد أن نضج الجنين في رحمٍ تهيَّأت له شروط الميلاد الميسور كافة . .

واليوم فإنه ليس بمقدور قوة في الأرض أن تبعث المسلمين من جديد للفعل الحضاري ما لم تتهيأ الشروط والمواصفات نفسها . . ما لم تتحقق بالتحولات الحاسمة ذاتها : عقيدياً ومعرفياً ومنهجياً . .

لقد شهد التاريخ حضارة الإسلام المبدعة . . وكان الأمر في التحليل النهائي بمثابة تحقق في الزمان والمكان ، للرؤية التي تنزَّل بها هذا الدين ، فأعاد من خلالها صياغة الروح والقلب والعقل والضمير . . ولولاها . . لما كان بمقدور العقل العربي ، بمواصفاته التقليدية

القديمة ، أن يفعل عشر معشار هذا الذي فعله بعد إعادة تشكله بالمؤثرات والتحولات التي صنعها الإسلام . .

ولقد امتد « **الفعل الحضاري الإسلامي** » لكي يغطي اتجاهات ثلاثة ، انضفرت في نهاية الأمر لكي تعزِّز الوجود الحضاري الإسلامي وتغنيه من جهة ، ولكي ترفد مجرى الحضارات البشرية بالعطاء المتنوع الواحد من جهة أخرى . .

فأما أولى هذه الاتجاهات فتتمثل باحترام الحضارة الإسلامية للتراث الحضاري البشري الذي سبقها وعاصرها . . ولم يكن العقل الإسلامي الجديد بالذي يتشنج في دائرة الذات ، وينقفل على حدود الأنا . . بل لقد علمته العقيدة التي أعادت تشكيله تقاليد الانفتاح المرن على كل حضارة ، أو إنجاز ما دام أنه قد يتضمن جانباً من الحكمة التي يتحرق العقل بحثاً عنها . . ولقد أصبحت هذه التقاليد بالنسبة إليه ممارسات يومية ، وعادات سائدة ، امتدت لكي تغطي مسيرته الطويلة .

الانتقـــــاء الحضـــــاري . . .

لم يكن هذا « العقـل » يرفض معطيات « غيره » ، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يتقبلها بالكلية . . لقد كان يملك في تركيبه الخاص ، ومن خلال منظوره العقيدي ، المقاييس الدقيقة والموازين العادلة التي يمرر من خلالها تلك المعطيات ، فيعرف جيداً ما يأخذ ، ويعرف جيداً ما يدع . .

إنه كان يمارس عملية بناء الذات الحضارية ، مستفيداً إلى أقصى

حدّ ، من خبرات الآخرين ، ولكن لم يحدث أبداً أن أقحم في مجرىٰ التحقق الكبير هذا عناصر وأجساماً غريبة لا تملك القدرة على الانسجام مع نسيج الحضارة الجديد ، والتناغم مع حركة نولها ، وهو يروح ويجيء بإيقاعٍ متناسق واحد . .

كل الحضارات البشرية ، سواء انبثقت عن رؤية دينية ، أم موقف وضعي . . صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار . . كانت تجد في حضارة الإسلام صدراً رحباً . . ولكن أيّاً من عناصرَها ما كان يسمح له بالدخول ما لم يكن يحمل جواز السفر الذي يتيح له أن يصل إلى هناك بالأسلوب المشروع . .

كل الحضـارات العالمية : يونانية ، ورومانية ، وبيزنطيـة ، وهلّلينية ، وفارسية ، وهندية ، وتركية وصينية . . . وتراث الجماعات والشعوب التي عاشت في المنطقة : آرامية ، ونبطية ، وقبطية ، وفينيقية . . . إلى آخره . . كانت ـ جميعاً ـ بمثابة حقول مفتوحة جال في **أطرافها العقل الإسلامي ، فأخذ ورفض ، وانتقى ومحّص واختبر ، وعزل واستبعد وفصل . . وعرف ، وهو يتجول عبر هذه الحقول الشاسعة ، ما الذي ينسجم ونسغه الصاعد ويزيده دماً وحياة ، وما الذي يحمل جراثيم المرض والهزال ، والدم الأزرق الفاسد ، فكان يعرف جيداً كيف يرفض هذا ويأخذ ذاك . .**

لم يكن مجرد اقتباس ، ولكنه هضم وتمثل ، وتطعيم مرسوم . . هدفه الخروج على الناس بألف نوع من الفاكهة والثمار . . مختلفة الأشكال والطعوم ولكنها تسقى بماء واحد !! . .

إن هذا الموقف الحضاري المتبصر ، المرن ، الموزون . . حقق

مردوده الإيجابي الفعال ليس على مستوىٰ الحضارة الإسلامية فحسب ، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعاً . . العناصر الطيبة الصالحة في هذه الحضارات بعبارة أدقّ . . وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدي وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرىٰ بهذه السعة والعمق : حماية التراث الحضاري البشري ، وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء . .

يقـول لـويس يـونغ :

(. . . وهكذا أصبح المسلمون في المناطق الجديدة لامبراطوريتهم على صلة تامة بحضارة واسعة ، تضم بين ظهرانيها أدباً واسعاً مكتوباً باليونانية والسريانية والبهلوية ، إلى جانب استيعاب للعلوم لم يكن لعرب الجاهلية أن يعرفوه . . . لقد صبّت جداول كثيرة في نهر الحضارة الإسلامية ، ولعل أشدها تأثيراً رافد الحضـارة الهيللينية ، ثم الحضارة الفارسية التي أثرت في الفكر السياسي والعادات الاجتماعية ، والحضارة الهندية التي أسهمت في علوم الطب والفلك ، وخاصة في الرياضيات حيث أخذ العرب الأرقام الهندية ؛ وقد أخذ العرب بعض التنظيمات الإدارية والسياسية التي كانت قائمة في البلدان المفتوحة ، مثل « ديوان الحسبة » الذي هو امتداد للمؤسسة البيزنطية ، وفكرة « المصلحة العامة » التي هي امتداد لـ Utilitas Publica في التشريع الروماني ؛ كما أخذوا بعض المناصب السياسية مثل «الوزير» من الفرس .

. . . ولقد فتح « العرب » أبوابهم على اتساعها لاستيعاب المعارف والثقافات القديمة ، من يونانية وغيرها ، مما قاد إلى نهضة كبرى في

مجال الترجمة . . . ولعل من أهم دوافع الترجمة : هو حث الإسلام على المعرفة ، ودعوته لتلقي العلم ، وجعل ذلك أمنية عظمى في الحياة . . وقد تعرف المسلمون من خلال الترجمة على جوهر الفلسفة القديمة والطب والعلوم الطبيعية اليونانية . . وهكذا كان مجال الترجمة واسعاً ، حتى إن الكثير من الأعمال اليونانية وصلت إلى أوروبا عن طريق الترجمة العربية فقط ، لأن النسخ اليونانية الأصلية فقدت . . إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم ؛ وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة . . .)[1] .

ويقـــول غرونبـــاوم :

(. . . وكانت نتيجة هذه الخصومة والتنازع أن خرجت إمكانات الإسلام الفلسفية والعملية إلى حيز الفعل ؛ وعبروا عنها من جديد في صيغ مقبولة لدىٰ ممثلي التقاليد الأقدم عهداً التي كان على الحضارة الدينية الجديدة أن تتعامل معها . . . فالتفكير الإداري والسياسي من فارس ، والطرائق الهلّنستية في التفلسف والعلم الدنيوي ، والطب والرياضيات من الهند ، كل ذلك قد تمثلوه واستوعبوه بغير عناء . وإن التعريب اللغوي لكل ما اقتبسوه من هذه الأمور ساعد على تمثلها ، وحينما توضع وجهة النظر الأجنبية في داخل إطار إسلامي وبتعابير إسلامية يكون الإحساس بها إسلامياً صادقاً ؛ ومن جهة أخرى فإن التوضيح التدريجي بحقائق الدين الأولىٰ أخذ يساعد على توسيع

(1) العرب واوروبا ، ترجمة ميشيل ازرق ص ٣٤ ـ ٣٦ (مقتطفات) ، دار الطليعة ، بيروت ـ ١٩٧٩م .

الأساس الذي يقوم عليه التبادل بين الحضارات ؛ وهكذا نجد أن ازدهار الحضارة العباسية بين [٧٦٠ ـ ٨٤٠م] إنما يمثل امتزاجاً ثانياً للحضارة الإسلامية ، وقد فسحوا المجال فيها للتقاليد « المحليــة » التي استمدوا جزءاً منها من الكتب ، إلا أن معظمها داخل في التركيب الجديد عن سبيل حقائق التعايش الفعلي . . .)[2] .

ويقـــول دي لاسي أوليري :

(. . . لقد أصبح العرب ، بحكم كونهم حكاماً لسورية ، على اتصال بثقافة متطورة إلى حد بعيد ، استخدموها في عدة مجالات : في بناء المجتمع والنظام الاجتماعي بشكل عام ، وفي الفنون والحرف ، وفي الحياة العقلية ؛ وكان الأثر الإغريقي وثيق الصلة بهم ، إلا أن العنصر الفارسي كان أوثق صلة . . . وهكذا فقد كانت هذه الفترة (الراشدية والأموية) فترة إحياء دائم إلى حد ما ، أخذت خلالها العناصر المختلفة عن العرب لغة جديدة وديناً جديداً ، وتساوت الآن في ظل الخلافة والتحمت فيما بينها في حياة مشتركة ؛ ومهما بلغت شدة الخلافات الطائفية والسياسية فيما بعد ، فقد ظلت سيادة الإسلام تنشر لواءها مدة طويلة ، ولا تزال كذلك إلى حد كبير ، وتتمتع بحياة مشتركة ، بمعنى أنه يوجد تفهم واعٍ بين مختلف الأنحاء ؛ وهكذا استطاع التأثير الفكري أو الديني أن ينتقل بسرعة من أحد الأطراف إلى الطرف الآخر ، كما أن واجب الحج إلى مكة قد أدىٰ الكثير في تفتح

(2) الوحدة والتنوع في الحضارة الإسلامية ، تاليف عدد من المستشرقين ، تحرير جي . ئي . غرونباوم ، ترجمة د. صدقي حمدي ص ٣٨ ـ ٣٩ ، مكتبة دار المتنبي ، بغداد ـ ١٩٦٦م .

الحياة المشتركة في نفوس هذه الجماعة ، وترويج الحوار بين مختلف أجزاء العالم الإسلامي . . فالحياة العامة في الإسلام مبنية إلى حد كبير على استعمال اللغة العربية ، كوسيلة في الحياة العامة . . وكان هذا ذا أثر في منتهى الفعالية قبل إدخال عناصر كبرى من الأتراك والهنود الذين لم يصبحوا قط من الناطقين بالعربية ، فكان هذا السبب هو الذي جعل الجماعة الإسلامية الناطقة بالعربية وسيلة مناسبة للنقل الثقافي . . .)[٣] .

ويقـــول :

(. . . كانت أولى وأكثر دلائل التكيف الجديد في الفكر الإسلامي هو الإنتاج المتزايد في ترجمة الكتب التي تعالج المواضيع الفلسفية والعلمية إلى العربية ، وكانت حصيلة ثمانين عاماً من بعد سقوط الأمويين امتلاك العالم الناطق بالعربية نسخاً عربية لأكثر كتب أرسطوطاليس ، وكبار شراح الأفلاطونية المحدثة ، وبعض آثار أفلاطون ، والقسم الأعظم من أعمال جالينوس ، ومؤلفات أخرى في الطب وشروحها ، وكذلك بعض الكتب اليونانية العلمية الأخرى ، وكتباً هندية وفارسية عديدة . . .)[٤] .

أثر العــرب في حضـــــارة أوروبـــة :

ويقـــول غوســـتاف لوبـــون :

(٣) الفكر العربي ومركزه في التاريخ ، ترجمة إسماعيل البيطار ، ص ٦٢ ، ٧٦ ـ ٧٧ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ـ ١٩٧٢ م .
(٤) المصدر السابق نفسه ص ٩٣ .

(. . . كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية ، واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها ، مدة خمسة قرون ، مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم ، وأنهم الذين مدّنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقاً . وتأثير العرب عظيم في الغرب ، وهو في الشرق أشد وأقوى . . .)[٥] .

ويقـــول :

(. . . الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ﷺ ، وبفضل هذه الترجمة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ، ككتاب أبولونيوس في المخروطات ، وشروح جالينوس في الأمراض السارية ، ورسالة أرسطو في الحجارة ، إلخ . . . وأنه إذا كانت هناك أمة نقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمـــة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً ، قـــال مسيو ليبري :

« . . . لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبـــة في الآداب عدة قرون . . . » .

وعرب الأندلس وحدهم ، إذاً ، هم الذين صانوا العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان ، حتى في القسطنطينية ، ولم يكن في العالم في ذلك

(٥) حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، الطبعة الثالثة ص ٢٦ ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ـ ١٩٥٦م .

الزمن بلادٌ يمكن الدرس فيها غير الأندلس العربية ، وذلك خلا الشرق الإسلامي طبعاً ، وإلى بلاد الأندلس . . كان يذهب أولئك النصارىٰ القليلون لطلب العلوم في الحقيقة . . ولم يظهر في أوروبا ، قبل القرن الخامس عشر من الميلاد ، عالم لم يقتصر على استنساخ كتب العرب ، وعلى كتب العرب وحدها عوّل روجر بيكون ، وليانورد البيزي ، وأرنود الفيلنوفي ، وريمون لول ، وسان توما ، وألبرت الكبير ، والاذ فونش العاشر القشتالي . . . إلخ)[٦] .

وجاء في كتاب « الحضارة الأوروبية سياسية واجتماعية وثقافية » لمؤلفيه أساتذة الفلسفة : جيمس وستفال توسون ، وفرانكلن شارلز بام ، وفان نوستراند :

(. . . في خلال قرنين نقل إلى العربية كل ما خلفه الإغريق من التراث العلمي على التقريب ، وأصبحت بغداد والقاهرة والقيروان وقرطبة مراكز لامعة لدراسة العلم وتلقينه . . وأخذت المعرفة بهذه الثقافة الإغريقية العربية تتسرب إلى أوروبة الغربية في أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر . . وتسابق الرجال من ذوي العقول اليقظىٰ إلى باليرمو وطليطلة لتعلم اللغة العربية ، ودراسة العلوم العربية ، مثل : أديلارد أوف بات ، ودانيال أوف مورلي ، وروجر أوف هيرفورد ، واسكندر نكوام . وكانت رسالة أديلارد أوف بات في المسائل الطبيعية أول مؤلف علمي أنتجته أوروبا الغربية في القرون الوسطى ، وقضى بعض الطلاب سنين عدة في إسبانيا ، ثم قضوا أعمارهم كلها في هذا العمل المقصور على ترجمة الكتب العلمية العربية إلى اللاتينية . . . وعلى هذا النحو كانت أوروبة قد استولت في مستهل القرن

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ .

الثالث عشر على محصول العلم الإغريقي والعربي بحذافيره . . .)[٧] . .

وليست هذه سوىٰ نماذج ، وهنالك غيرها مئات الشواهد بل ألوفها !! . .

الإبداع بعد الانتقاء . . .

لكن العقل المسلم لم يقف عند هذا الحد . . كانت هنالك وظيفة أخرى تنتظره ، وتعد بمثابة النتيجة المحتومة لشروط قد توفرت سلفاً ، ولقد أحسن تنفيذها حقاً : الإضافة والتجديد والإغناء وإعادة التركيب لمعطيات حضارية كانت بأمس الحاجة للتغيير والتبديل وتوسيع نطاق البناء ، بعد إذ لم تعد صالحة تماماً لحاجات العصر الجديد ، ومطالب الإنسان المؤمن الجديد .

إن كثيراً من القيم الحضارية القديمة كانت يومها قد أصبحت أمراً « رجعياً » وكانت حركة الإسلام « التقدمية » تقضي بضرورة تغييرها واستبدالها بعناصر جديدة أكثر صلاحية وانسجاماً مع إيقاع الحياة التي صاغها الإسلام . .

ليس هذا فحسب ، بل إن العقل الإسلامي المتحضر قدر على أن يكتشف ويبتكر عناصر وقيماً حضارية جديدة بالكلية ، وأن يقدمها للعالم ثماراً يانعة لجهده الخاص ، فليس كل ما صنعه المسلمون هو حماية التراث الحضاري القديم ، وإعادة شرحه وتفسيره ، وإضافة بعض

(٧) عباس محمود العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، الطبعة الثانية ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ، دار المعارف ، القاهرة ـ ١٩٦٠م .

الشروح والهوامش عليه . . وكأن ذلك التراث هو الطريق الوحيد لكل إبداع حضاري ، وكأنه حتمية مقفلة لن يستطيع عقل أن يشذ على مواضعاتها ، ويخرج عن حدودها المرسومة . .

لقد أبدع **العقل الإسلامي** ، ابتداء ، قيماً جديدة ، وابتكر واكتشف الكثير من المعطيات والنظم الحضارية التي كانت بمثابة الأسس التي بنت عليها فيما بعد حضارات أخرىٰ في مشارق الأرض ومغاربها . .

وهكذا فإن الدور « **الإغنـائي** » للحضارة الإسلامية يتوجب أن يعالج من خلال هذا المنظور الواسع ، وألا يغمط حقه وهو يقلّص ، لهذا السبب أو ذاك ، لكي يغدو مجرد تابع أمين وذكي لمعلمي اليونان القدماء ، قدير على فهمهم وطاعتهم وشرح غوامضهم . . وليس ثمة وراء هذا أية محاولة للنقض والهدم والتبديل . . أو لإبداع قيم ومعطيات وتقاليد جديدة لا علاقة لها البتة بحضارات الأقدمين .

ولقد كانت الرؤية الجديدة قديرة على التألق والابتكار . . وكان العقل الإسلامي جديراً بالمهمـة . . وهكذا صنع الذي صنع . .

والشهادات عن دور **العقل الإسلامي** في إغناء الحضارات البشرية ، والإضافة عليها ، وارتياد الآفاق المجهولة ، واكتشاف القيم المعرفية والتجريبية الجديدة ، كثيرة غزيرة . . صدرت عن كتّاب ودارسين وعلماء وأكاديميين شرقاً وغرباً ، بحيث يصعب على المرء أيها يأخذ وأيها يدع . . ولكن لا بأس في اقتباس نماذج فحسب من هذا الخضم العميق لكي تكون بمثابة مؤشرات على درب العطاء الطويل . .

● لــويس يونغ :

(. . . إن تطوير المسلمين للتراث اليوناني هو واحد من أهم حلقات التاريخ الثقافي في العالم ، وليس معنى ذلك أن الحضارة الإسلامية كانت مجرد تقليد أو انعكاس للحضارة اليونانية القديمة ؛ يجب أن لا تغيب عن ذهننا ـ إذ نناقش ونقيم الحضارة الإسلامية ـ تلك الأفكار المبدعة التي جاءت من الجزيرة العربية مع الإسـلام وقبله ، واستطاع المسلمون أن يمزجوا بها التراث اليوناني فيصنعوا من ذلك لوناً جديداً سباقاً فريداً . . .)[٨] .

(. . . ما الذي تركته حضارة العرب والمسلمين في أوروبا ؟ لقد تركت بصماتها على جميع المستويات ابتداءً ببعض العادات الشعبية ، وانتهاءً بالعلوم حيث يستخدم ملاحو الفضاء اصطلاحات عربية ، مثل : « السمت Azi muth » ، و « سمت الرأس Zenith » ، وهناك في خرائط القمر أكثر من موقع أطلق عليه أسماء لبعض العلماء العرب : كالزركلي ، والبتاني ، وأبي الفداء . . إن أشيـاء كثيرة لا يزال على الغرب أن يتعلمها من الحضارة الإسلامية . . .)[٩] .

● ســارتون :

(. . . حقق المسلمون ، عباقرة الشرق ، أعظم المآثر في القرون الوسطى . فكتبت أعظم المؤلفات قيمة وأكثرها أصالة وأغزرها مادة باللغة العربية ؛ وكانت من منتصف القرن الثامن حتى نهاية القرن الحادي عشر لغة العلم الارتقائية للجنس البشري ، حتى لقد كان ينبغي

---

(٨) **العرب واوروبا ص ٣٦ .**
(٩) **المصدر السابق نفسه ص ١٠ .**

لأي كان إذا أراد أن يلم بثقافة عصره ، وبأحدث صورها أن يتعلم اللغة العربية ، ولقد فعل ذلك كثيرون من غير المتكلمين بها . . .)[10] .

● سـديو :

(. . . تكونت فيما بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر مجموعة من أكبر المعارف الثقافية في التاريخ ؛ وظهرت منتوجات ومصنوعات متعددة واختراعات ثمينة تشهد بالنشاط الذهني المدهش في هذا العصر ، وجميع ذلك تأثرت به أوروبة بحيث يؤكد القول :

إن العرب كانوا أساتذتها في جميع فروع المعرفة . لقد حاولنا أن نقلل من شأن العرب ، ولكن الحقيقة ناصعة يشع نورها من جميع الأرجاء ، وليس من مفر أمامنا إلا أن نرد لهم ما يستحقون من عدل إن عاجلاً أو آجلاً)[11] .

● دريـر :

(. . . ينبغي علي أن أنعي على الطريقة الرتيبة التي تحايل بها الأدب الأوروبي ليخفي عن الأنظار مآثر المسلمين العلمية علينا ؛ أما هذه المآثر فإنها على اليقين سوف لا تظل كثيراً بعد الآن مخفية عن الأنظار ؛ إن الجور المبني على الحقد الديني والغرور الوطني لا يمكن أن يستمر إلى الأبد . . .)[12] .

● نيكلسـون :

(. . . إن أعمـال العرب العلمية اتصفت بالدقة وسعة الأفق ، وقد

(١٠ ـ ١٣) جلال مظهر : اثر العرب في الحضارة الأوروبية ، الصفحات ١٧٠ ـ ١٧١ ، ١٩٢ ـ دار الرائد ، بيروت ـ ١٩٦٧م .

استمد منها العلم الحديث ـ بكل ما تحمل هذه العبارة من معان ـ مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض . . .)[13] .

من منجـزات المسلمين العلميـة . . .

ونريد الآن أن نؤشر فحسب على عدد من الإضافات الإسلامية في بعض الحقول العلمية الصرفة . . أما الإنجازات بتفاصيلها فيمكن أن يجدها القارىء في أكثر من كتاب . .

●● في الرياضيـات :

أسهم المسلمون في إغناء المعرفة الإنسانية ، وقد تابعوا دراسة علم الحساب إلى مدىً بعيد . . فالدولة الإسلامية تطلبت تقديرات حسابية لتنفيذ أحكام الزكاة ، والجزية ، والخراج ، وتقسيم الإرث . . كما نصَّ على ذلك القرآن الكريم . .

في الجبر ، برز محمد بن موسى الخوارزمي [توفي ٨٥٠م] ، الذي يعود إليه تأسيس علم الجبر ، وهو الذي تعمق في هذا العلم مدى أبعد من الإغريق ، وكتابه « كتاب الجبر والمقابلة » قدم للعالم تعبيراً خاصاً عن هذا الفرع من الرياضيات . . ويعد كتابه أفضل كتاب في مادة الجبر حتى الأزمنة الحديثة .

وأدخل البتـاني [توفي عام ٩٢٩م] النسبة في علم المثلثات كما هي معروفة اليوم ؛ وتبعه عالم عربي لامع في الرياضيات هو أبو الوفا [توفي ٩٩٧م] الذي اكتشف معادلة لجمع الزوايا . . وهو الذي

اكتشف أيضاً الخط الذي يقطع القوس .

أما الهندسة ، فقد كانت متقدمة عند المسلمين ، وهم الذين استخدموها في مجالات عملية ، كالمساحة وإنشاء طواحين الماء ، إضافة إلى استخدامهم إياها كثيراً في أغراض الزينة في فنهم ؛ ولعل أهم إسهام للعرب في حقل الرياضيات كان إدخالهم الرموز التي سموها « **الأرقام الهندية** » . . والمسلمون الذين بسطوها وجعلوها طيِّعة بحيث قبلها العالم على مرّ العصور .

●● **في الفيزياء :**

عارض ابن الهيثم [توفي ١٠٣٩م] ، **الذي برز في علم البصريات** ، إقليدس وبطليموس في زعمهما أن العين ترسل إشعاعات إلى الشيء المنظور تمكن من رؤيته ، وأصر على أن عملية الرؤية تحدث عندما يرسل المنظور إشعاعات تدخل العين ، وقد وجد لدى تفحصه قدرة القمر على الإشعاع ، أن القمر ليس بالجسم الصقيل كالمرآة ، ومن ثم اكتشف أن جميع الأجسام الملونة تعكس الضوء ، وأن **الضوء واللون متطابقان ؛ ولإثبات فرضياته قام بتجارب أدّت به إلى اختراع آلة التصوير** ، وتشير الأبحاث الحديثة في مخطوطاته إلى أنه كان مدركاً تمام الإدراك دور الرياضيات في نظريته في البصريات ، وقد خلص الباحثون إلى اعتباره بكل جدارة **مؤسس علم الفيزياء بالمعنى الحديث للكلمة** .

أما البيروني [توفي ١٠٥٠م] **فقد اكتشف عن طريق التجربة عدداً من الجاذبيات المحدودة بوساطة ما أسماه « المخروط » ، ويعد هذا أول مقياس للثقل النوعي .**

أما الخازني [توفي ١١٠٠م] **فقد استخدم مقياساً للكثافة شبيهاً**

بذلك المقياس الذي استخدم قديماً في الإسكندرية للتحري عن خواص السوائل ، كما بحث مشكلة كثافة الماء عند منتصف الكرة الأرضية ، تلك المشكلة التي تناولها بعينها روجر بيكون .

●● **في علم الفلك** ، الذي لقي ترحيباً كبيراً لدى المسلمين بسبب اهتمامهم « **بعلم الميقات** » الذي يحدد مواعيد الصلاة واتجاه مكة المكرمة . . برز عدد من العلماء منهم : **الفزاري** [توفي ٧٧٧م] ، الذي أنشأ الاصطرلاب ، ثم **البتاني** [توفي ٩٢٩م] ، الذي قام ببعض الأرصاد الفلكية الهامة وبعض المقاييس ، وتبعه **عمر الخيام** [توفي ١١٢٣م] ، الذي صمم تقويماً جديداً هو التقويم الجلالي ، وقد أخطأ الخيام بيوم واحد في كل خمسة آلاف سنة ؛ أما **أبو معشر** [توفي ٨٨٦م] فقد بحث بشكل دقيق في العلاقة بين المد والجزر وحركة القمر .

إلا أن أهم إنجازات المسلمين في علم الفلك تتمثل في تصميمهم المرصد .

وعلى الرغم من أن الإغريق صمموا أدوات فلكية ، منها : الاصطرلاب ، إلا أن المرصد بشكله المخصص والمنظم لم يظهر للوجود إلا في العصر العباسي . . وقد استخدمت فيه أدوات من مثل : ذات الربع ، والاصطرلاب ، والمحلق ، والكرات الهندسية . .

●● **في الكيمياء** : « حيث لم يستطع الأقدمون التمييز بينها وبين الصيدلية لعدة قرون » ، أجريت تجارب متقدمة ، وقطعت أشواطاً أكبر مما تكهن به الإغريق ، وبرز عدد من الكيماويين ، كان من أبرزهم : جابر بن حيان [توفي حوالي ٨١٥م] ، **الذي أجرى عدداً من**

التجارب على المواد العضوية الحيوانية والنباتية . . وسجل ملاحظاته وتجاربه التي أدت إلى تحضير حامض الآزوت لأول مرة في التاريخ ؛ وقدم وصفاً كاملاً لعملية تحضير الفولاذ ، وتصفية المعادن الأخرىٰ ، وعملية صبغ الأقمشة ودباغة الجلود والدهان لصنع الملابس الواقية من الماء ، وكيفية حماية الحديد من الصدأ ؛ كما عرف صناعة حامض الخل إلى جانب وصفه بدقة بعض العمليات الكيماوية ، كالتبلور والانحلال والتكرير .

وكان **الـرازي** ، رغم شهرته في ميداني الطب والفلسفة ، ذا قدم راسخة في مجال الكيمياء ؛ إلا أن اهتمامه تركز على الكيمياء المختبرية أكثر من الكيمياء العامة وفرضياتها . **وهو صاحب مذهب في دراسة الكيمياء** أخذ يوسع مجال المعرفة الكيماوية شيئاً فشيئاً بجهود الباحثين في هذا المضمار ؛ وقد استخدم عدة مواد في تجاربه ، منها : كل المعادن المعروفة في عصره ، **وهو أول من وضع نظاماً لتصنيف الحيوان والنبات والمعدن** .

هنـالك أيضاً **أبو منصور موفق** ، **أول كيماوي ميز بين كربونات الصوديوم وكربونات البوتاس** ، وقد شرح كيف يعطي الجص إذا سخن نوعاً من الكلس لتضميد كسور العظام ، وتعرف هذه المادة اليوم بجص باريس ، وتستخدم كثيراً في الصناعة ، وخاصة صناعة القوالب . .

ولقد دأب الكيماويون المسلمون على تجاربهم بكل حرية إلى أن توصلوا إلى الكشوف العلمية التي أدت بدورها إلى تطور الكيمياء بشكلها المعاصر .

●● **في علم النبـــات** : نلتقي بعالم الطبيعة القرطبي أبو جعفر

الغافقي [توفي ١١٦٥م] ، الذي قام بجمع مجموعات من النباتات من إسبانيا وشمالي أفريقيا ، وأطلق عليها تسميات بالعربية واللاتينية والبربرية ، ووضعها بدقة في كتابه « **الأدوية المفردة** » ، كما نلتقي بالصيدلي وعالم النبات العظيم **ابن البيطــار** [توفي ١٢٤٨م] ، الذي اعتمد في كتابه على أعمال **الغــافقي** ، وارتحل إلى شمالي أفريقيا وإلى سورية باحثاً في حياة النباتات ، وقد ذاعت شهرته من خلال كتابيه « **المغني في الأدوية المفردة** » و « **الجامع في الأدوية المفردة** » اللذين يبحث أولهما في المواد الطبيعية ، ويبحث ثانيهما في الحيوان ، والنباتات ، والمواد المعدنية ذات الخواص الطبية . وقد صب عنايته على المعلومات التي زوده بها سابقوه ، ولكنه أضاف ثلاثمائة مادة جديدة إلى المواد المكتشفة سابقاً ، وعددها : **ألف وأربعمائة** .

●● **في الطـــب** : اقتبس الأطباء المسلمون عن الإغريق النظريات الطبية التي تشكل قاعدة ثابتة ومُرضية لعلاج المرضىٰ ، **إلا أن الأطبـاء المسلمين ركزوا على الأمور العملية بدلاً من النظرية في العلاج الطبي** ، وقاموا بكثير من الاكتشافات الطبية ، وأحرزوا تقدماً كبيراً في فن الاستطباب ؛ وكان من أشهر هؤلاء الأطباء : **الزهــراوي** [توفي ١٠١٣م] ، الذي يضم كتابه « **التصريف لمن عجز عن التأليف** » قسماً عن الجراحة يعتبر أعظم إسهام في هذا الموضوع في القرون الوسطىٰ ، **والــرازي** [توفي ٩٢٥م] ، الذي كان أول من ميز بين مرضي الجدري والحصبة ، وذلك في كتابه « **في الحصـبة والجدري** » ، أما كتابه الكبير « **الحــاوي** » فيعتبر موسوعة طبية يلخص فيه معارف الإغريق والفرس والهنود في الطب ، ويضيف بعدها ملاحظاته الشخصية . . أما في طب العيون فهنالك **علي بن عيسىٰ** ، **وعمــار الموصلي** « وكلاهما عاش في

النصف الأول من القرن الحادي عشر » ، وقد ألَّف كل منهما الكتب حول الطب ، ووسَّعا دائرة المعرفة الطبية اليونانية ، وأضافا التعليمات العديدة حول إجراء العمليات ، كما أضافا ملاحظاتهما الشخصية . . . وإلى الأطباء المسلمين يعود اختراع الأدوات الجراحية ونظام فحص المريض بشكل كامل ، ووصف العديد من الحالات الطبية والأمراض ، كما كانوا يملكون موهبة نظرية وعملية في تصنيف علوم الطب وتقديم نتائجهم في كتاب عملي واضح للطلاب وللأطباء معاً ؛ **غير أن أكبر إنجاز طبي للمسلمين يتجلى في إنشاء المستشفيات وإدارتهم إياها على أكمل وجه ، وفق نظام دقيق لا يزال يُعمل به حتى الآن .**

●● **في علم الجغرافيـــا** : صحح المسلمون في كثير من الأحيان معطيات الجغرافيا الإغريقية ، بعد أن قام الرحالة المسلمون بكشوفهم الجديدة في الأصقاع البعيدة ؛ وقد امتد شمول علم الجغرافية العربي من الجزائر إلى الخالدات غرباً إلى كوريا ، واحتمال وجود اليابان شرقاً . وأصدر الجغرافيون الكتب التي تصف الطرق والمدن الإسلامية ، وأسهموا في توسيع مجال علم الجغرافيا ؛ ومن أبرز هؤلاء : **المقدسي** [توفي ١٠٠٠م] ، في كتابه « **أحســن التقاسيم في معرفة الأقاليم** » الذي تضمن بحوثاً في المناجم ، واللغات المحلية ، وعـروق البشـر ، والعـادات القـوميـة ، والـديـانـات والأوزان والمقاييس . . . إلخ . . كما كان هناك جغرافيون هامون في القرن العاشر هم : **البلخي** ، **والإصطخري** ، **وابن حوقل** .

وعرف القرن الثاني عشر أعظم عمل جغرافي عربي منظم في كتاب « **نزهــة المشتاق في اختراق الآفاق** » **للإدريسي** [توفي ١١٦٦م] ، الذي عمل في بلاط الملك النورماندي **روجر الثاني** ملك صقلية في

باليرمو ؛ ويضم كتابه العظيم أعمال الجغرافيين السابقين ، كما يضم المعلومات التي رواها الرحالة ، ويشير الكتاب إلى افتراض أن الأرض كروية . . . وبصورة عامــة فإن أهمية الجغرافيين المسلمين تكمن في رسمهم الخرائط الجغرافية ، ووصفهم التفصيلي لمناطق خاصة ـ أي الجغرافية المحلية ـ **ويعود إليهم فضل حفظ النظرية القديمة القائلة بكروية الأرض**(١٤) .

●● **أما في مجـــال العلوم التطبيقيــة** : فيكفي أن نشير إلى دور الحضارة الإسلامية في تطوير استخدامات الري والميكانيك ، وتحسين صناعة الـورق ، وتكريـر السكر واختـراع البارود(١٥) . . وغيـرها الكثير . . .

وليس ثمــة من داعٍ لاستعراض ، أو حتى للإشارة ، إلى إسهامات المسلمين الكبيرة في حقول العلوم الإنسانية ، كالتاريخ ، والاقتصاد ،

---

(١٤) لويس يونغ : العرب واوروبا ص ٧٢ ـ ٧٤ ، مقتطفات من ص ٩٨ ـ ١٠٦ ، وانظر عن إسهامات المسلمين العلمية بالتفصيل : جلال مظهر : اثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٢٠٣ ـ ٣٥١ ، العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، د. احمد عيسى : آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب ، د. علي عبدالله الدفاع : إسهام علماء المسلمين في الرياضيات ، د. عبدالحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمة عمر فروخ : تاريخ العلوم عند العرب ، قدري حافظ طوقان : تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك ، د. ياسين خليل : التراث العلمي العربي ، عبدالله الجراري : تقدم العرب في العلوم والصناعات ، حكمت نجيب عبدالرحمن : دراسات في تاريخ العلوم عند العرب ، إدوارد جي براون : الطب العربي ، د. توفيق الطويـل : العرب والعلم ، الدوميلي : العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي ، كارلو نللينو : علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، ماجد عبدالله الشمسي : مقدمة لعلم الميكانيك في الحضارة العربية ، دائرة المعارف الإسلامية .. إلى آخره ..

(١٥) انظر : جلال مظهر : اثر العرب في الحضارة الأوروبية ص ٣٣١ ـ ٣٥١ .

والقانون ، والسياسة ، والتربية ، والنفس ، ومناهج البحث ، والاجتماع ، والنظم الإدارية ، والآداب والفنون .. إلى آخره ، وتأثيراتها في مجرى الحضارات البشرية ، وخاصة الحضارة الغربية ، فهي أوضح للعيان وأشد حضوراً من أن يشار إليها أو يدلّل عليها ..

النقل الجغرافي والانتشار ...

وثمة الاتجاه الثالث الذي مارسه العقل المسلم حضارياً : النقل الجغرافي والانتشار ..

إذا كانت الحضارة الإسلامية في الأولى قد مارست انفتاحاً عقلانياً على تراث الحضارات السابقة ، وإذا كانت في الثانية قد حوّرت فيها وفسّرت وشرحت وأضافت وابتكرت وأغنت .. فإنها ها هنا تمارس انفتاحاً إنسانياً ، يتجاوز تقاليد الانغلاق على الذات ، ويرفض الأنانية والاستعلاء ..

لقد فتح المسلمون صدورهم لكل طالب علمٍ ، أيّاً كانت الجهة التي قدم منها ، وفتحوا أبوابهم ونوافذهم على مصاريعها لكي يخرج منها الضوء الجديد فيغطي قارات العالم ويلفّها بالنور .. لقد وضعوا كشوفهم ومعطياتهم أمام الجميع ونادوا بأعلىٰ صوت : إن من يرد أن يأخذ فإن الطريق مفتوح .. لقد كان عطاؤهم ـ بحق ـ غير مجذوذ ..

إن غوستاف لوبون يقول بصراحة :

(... لقد كان تأثير العرب في الغرب عظيماً للغاية ، فأوروبة مَدِينَة

للعرب بحضارتها ؛ ونحن لا نستطيع أن ندرك تأثير العرب في الغرب إلا إذا تصورنا حالة أوروبة عندما أدخل العرب الحضارة إليها ...)[١٦] ..

ويعلنها لكلير بكلمات واضحة :

(... نستطيع أن ندرك أية ثورة فكرية بعثتها في الغرب حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية ، وأية فائدة جناها العلماء اللاتين منها ، فكانت هذه الترجمة أداة جوهرية للتقدم وانتشاراً للعلم العربي المنتعش بجانب الغرب ...)[١٧] .

ولا زلنا نذكر كلمة مسيو ليبري التي مرت بنا قبل قليل :

(... لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبة في الآداب عدة قرون ...) !!!

ربما يكون ، في هذا الإسراف في أخلاقية العطاء ، ما يثير نقداً أو اعتراضاً .. إذ كيف تسلم خصمك السلاح الذي سيقتلك به ، وفي الحضارات جوانب مما قد يتحول إلى سلاح للقتل فعلاً ؟!! ..

إن الغربيين في قرننا هذا صنعوا القنبلة الذرية ، وأعقبوها بالهيدروجينية ، فالنيوترونية .. إلى آخره .. ولم يسمحوا لأنفسهم قط أن يعطوا معادلاتها الرياضية والطبيعية لأيدي وعقول الأمم الأخرىٰ .. اللهم إلا من يحسبونه امتداداً لهم .. أفما كان أولى بالمسلمين أن يتوقفوا بعض الشيء ويراجعوا حساباتهم قبل أن يمضوا في العطاء حتى آخر نقطة ؟!!

---

(١٦) المصدر السابق نفسه ص ١٧٠ ـ ١٧١ .
(١٧) المصدر السابق نفسه ص ١٩٢ .

هذه مسألة أخرى . . **ويكفي العقل الإسلامي شرفاً أنه كان عقلاً « إنسانياً » يعمل من أجل الإنسان أياً كان موقعه في الزمان والمكان ، كما علمته عقيدته أن يعمل** . .

كلنا يعرف الجسور التي انتقلت عليها معطياتنا الحضارية إلى عالم الغرب الغارق ـ يومها ـ في سباته العميق . . إسبانيا . . جزر البحر المتوسط . . شواطىء آسيا وأفريقيا . . والأناضول . . فضلاً عن تجارب الاحتكاك التاريخي البشري ، في السلم والحرب بين الأمة الإسلامية وشعوب الغرب . .

(. . . **لقد عبرت الحضارة العربية إلى أوروبا ـ يقول « لويس يونغ » ـ وتركت آثارها من خلال ثلاثة جسور هي بترتيب الأهمية : إسبانيا ، وصقلية ، وسورية . . وتبقى إسبانيا أهم طريق مرت عبره الحضارة العربية إلى أوروبة** . إن التأثير العربي الدائم في إسبانيا ثقافياً ولغوياً ، لم يكن فقط بسبب تواجد السلطة العربية في هذه البلاد زهاء ثمانية قرون ، فإن الحضارة العربية تجاوزت أوروبة حيث غدت إسبانيا منطلقاً لترجمات في الفلسفة والعلوم العربية على نطاق واسع ، **وذلك في مدينة طليطلة التي استعادها النصارى عام ١٠٨٥م** . . . وكانت الثقافة العربية تنتقل كذلك إلى أوروبا عن طريق الباحثين إلى جنوبي فرنسا وتولوز ومرسيليا وناربون ومونبليه ، وشهد القرن العاشر انتقال العلوم العربية بصورة مبكرة إلى اللورين مما جعلها مركزاً ثقافياً هاماً لمدة قرنين ؛ كما غدت مدن أخرى مراكز للتأثير العربي الحضاري وهي : لييج وكورز وكولون ؛ ومن اللورين انتقلت الثقافة العربية إلى أجزاء أخرى من ألمانيا وإلى انكلترا .

وكانت صقلية الجسر الثاني الذي اجتازته الحضارة العربية في طريقها إلى أوروبة . . ولقد شهد القرن الثاني عشر ظهور حضارة نصرانية إسلامية صقلية نتيجة لسياسة اللين التي اتبعها النورمانديون في صقلية ؛ ولسوء الحظ فإن هذه الظاهرة من التعاون الحضاري فريدة في تاريخ العلاقات بين العرب وأوروبة . وقد أخذ النورمانديون عن العرب « **تقاليدهم** » وآدابهم وعلومهم ، واستخدمت اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللاتينية واليونانية ، وضربت النقود على النمط العربي . . .

وكانت سورية الجسر الثالث للحضارة العربية العابرة إلى أوروبة خلال الحروب الصليبية . . . في المجالات التجارية والعسكرية والزراعية والصناعية ، أما في مجالات العلوم « **الصرفة** » والفلسفة فلم يكن لسورية كبير تأثير في نقل الحضارة العربية إلى أوروبة ، إلى جانب ذلك فإن الأدب الأوروبي اغتنى بما نقلته الحملات الصليبية إلى أوروبة من الفن القصصي والأسطوري للحضارتين البيزنطية والعربية ؛ وكان للتجار الفضل الكبير في نقل الثقافة الإسلامية إلى أوروبة عن طريق سورية في زمن الصليبيين ، فقد كانت الطرق التجارية الإسلامية تنطلق من سورية والبحر الأسود ، وبعد ذلك صوب المدن التجارية الإيطالية ، مثل : **جنوة ولوكا والبندقية** ، وكانت البضائع تنقل عبر جبال الألب إلى المراكز التجارية الكبرى في أوروبة ، مثل : **أوكسبورغ ونورنبرغ وأولم وريجنسبرغ وغيرها** . . . أما الطرق التجارية الشرقية فكانت تنطلق من المناطق الشرقية للبلاد الإسلامية عبر روسيا وإلى بلدان شرقي أوروبة . . .)[١٨] . .

---

(١٨) العرب وأوروبا ، مقتطفات من الصفحات ١١٩ ـ ١٢٣ .

ومهما يكن من أمر فإن الحضارة الإسلامية مارست وظيفتها في ميدان النشر الجغرافي بالقدرة نفسها على الفاعلية والعطاء التي مارست بها وظيفتيها السابقتين .. لقد كانت في كل الأحوال تعمل من أجل الإنسان ..

وثمـة ما يجب أن يقال في ختام هذه الصفحات .. إننا لو مارسنا تحليلاً لحجم الدور الذي أداه الإسلام « حضارياً » مقارناً بالأدوار التي أدتها المذاهب والحضارات الأخرى ، سواء أكانت وضعية أم دينية محرفة .. فإننا سنجد المسافة واسعة ممتدة يصعب تقريبها ، لا سيما إذا وضعنا في الحسبان الوظائف الكبرى الثلاث التي مارستها حضارة الإسلام .

إنه لا الحضارات السومرية والبابلية والمصرية ، ولا الحضارات الإغريقية واللاتينية والبيزنطية والهللينية ، ولا الحضارات الفارسية والهندية والصينية ، على ما قدمته جميعاً من عطاء زاخر ، بقادرة على أن تسامت هذا الدور .. وإنه لا الفلسفات اليونانية والهندية ، ولا المذاهب الوضعية الأوروبية منذ عهود النهضة والتنوير ، وحتى طوباويات الاشتراكيين الفرنسيين والانكليز ، **ووجوديات : هيدجر وكيركغارد وسارتر وكامي ، ومثالية : هيغل ، ومادية ماركس وانغلز** .. بقادرة أيضاً على أن تسامت الإسلام في قدرته ، ليس فقط على تكوين الحضارة وإنمائها ، ولكن أيضاً في تحويل القيم والأفكار إلى واقع منظور ، وتجربة معاشة ، وخبرات تتشكل حية نامية في مساحات الزمان والمكان ..

أما الحضارة الغربية المعاصرة ، بأجنحتها كافة ، فيكفيها جنوحاً في

الشخصية وانحساراً في الدور الوظيفي ما تعانيه من اختلال محزن في التوازن بين الثنائيات الذي قدر الإسلام على التحقق به بشكل يثير الدهشة والإعجاب .. توازن بين الوحي والعقل ، والعدل والحرية ، والضرورة والجمال ، والفردية والجماعية ، والروح والجسد ، والطبيعة وما وراءها ، والوحدة والتنوع ، والمنظور والغيب ، والمنفعة والأخلاق ، والقدر والاختيار ، والحياة والموت ، والدنيا والآخرة ، والفناء والخلود ..

إن البريق الذي يشعّ من معطيات الحضارة الغربية فيبهر الأبصار .. لن يتجاوز جلدها ـ بحال ـ إلى صميم التركيب البيولوجي والسايكولوجي لشخصية هذه الحضارة الجانحة ..

وإنه حقاً لَلْمصير الذي ينتظر كل حضارة ترفض الإيمان بالله ..

الفصل الثالث

(الهيكل) الحضاري للرؤية الإسلامية

[١]

بعد هذا كله . . هل نطمح إلى استعادة دورنا الحضاري دون أن نتحقق بالشروط الضرورية لإعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر ، تماماً كما تشكلت عقول أجدادنا الروّاد ؟

أبداً . . فدون هذه الشروط التصورية والمعرفية والمنهجية . . لن نقدر على الإمساك بالحركة التاريخية لكي تمنحنا مكاناً تحت الشمس ، وتردّ إلينا دورنا المفقود . . وهو دور (حضاري) حللنا ـ بإيجاز ـ طبيعة وظائفه وأبعاد تحققه التاريخي . .

ولنـا ، في هذا المقطع ، أن نرتد مرة أخرى إلى الجذور .. إلى مبادىء الإسلام نفسها ، لكي ما يلبث أن يتأكد لنا البعد الحضاري الذي يتغلغل في نسيجها .. في محاولة لتصور **(الهيكل)** الذي يقوم عليه .

وتصبح مسألة إعادة تشكيل العقل الإسلامي المعاصر ، ليكون بمستوىٰ الدور الذي يتوخى منه .. ضربة لازب وقدراً محتوماً .. وإلاّ فإن مكاننا ذيل القافلة .. فلن نعرف أبداً ما يجري في المقدمة .. ولا ما يراد بنا .. ولا إلى أين نسير .. ولن تكون لنا ـ أبداً ـ خارطة على صفحة هذا العالم .

باختصـارٍ يناسب حجم هذه المحاولة .. فإن الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية يمكن أن يتمثل بمثلث متساوي الأضلاع ، محكم الزوايا ، أو بمعادلة ذات ثلاثة أطراف ، أو بعمارة مؤلفة من أدوار ثلاثة ، يقوم أحدها على الآخر ، ويتناظر معه بتطابق هندسي معماري مرسوم : الأرضية ، والإنسـان ، وبرنامج العمل ..

وسنجد ، دون تمحل ولا تشنج ولا تعمد مسبق على حساب المنهج ، كيف أن الأطراف الثلاثة هذه تؤول ، من خلال معطياتها الخاصة وطبيعة علاقتها بالطرفين الآخرين ، إلى موقف حضاري ، سداه العمل والإنجاز ، ولحمتـه الكشف والإبداع ..

ولنبـدأ بالأرضيـة ..

[٢]

لقد أريد للعالم أن يكون صالحاً لاستقبال الإنسان ، مناسباً لقدراته

الخاصة ، مستجيباً ، بقدر ، لمطامحه وأهدافه ..

لقد هُيِّئَتْ أرضية العالم لكي تحرث .. وتـزرع .. ويكون الحصاد ..

وبانتظار العقل الذي سيفكر .. واليد الذي ستنفذ .. والإرادة التي ستشد بين رؤية العقل وقدرة اليد .. فإن العالم سيتشكل وفق صيغ ومعادلات تمكن القادم الجديد من أداء دوره الحضاري المرسوم ..

تماماً كما سيتشكل القادم الجديد نفسه ، كما سنرىٰ ، بالصيغ والشروط التي تعينه على تنفيذ المطلوب :

والقرآن الكريم يحدثنا طويلاً عن سائر **(العمليات)** التي أريد بها تهيئة العالم لاستقبال المخلوق الجديد ، وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات .. بل إنه يمضي بنا إلى ما وراء ذلك اليوم الذي قال فيه الله سبحانه للسماوات والأرض :

﴿ ... ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (فصلت : ١١) .

إن التوجه الحضاري في القرآن يمتد إلى ما قبل آدم .. إنه كل فعل امتزجت فيه إرادة الله وكلمته بالمادة فصاغتها كتلاً كونية ، أو نظماً طبيعية ، أو خلائق تحمل بصمات الحياة الأولى من نبات أو حيوان ..

وما دامت عملية بناء الكون وتهيئة الأرضية الصالحة للحياة على الأرض ، قد سبقت خلق آدم بأزمان لا يعلمها إلا الله ، وما دامت المقاييس الآدمية تجيء دائماً نسبية قاصرة ، محدودة إزاء خلق الله ، فليس لنا أن نطمح للإحاطة الكاملة والتفسير الشامل لقضية « التكوين » هذه ، وليس لنا ـ كذلك ـ أن نفترض نظريات لا جدوىٰ من ورائها ..

إن هذا فوق طاقتنا ، وإن أية محاولة في سبيله لا تعد أن تكون عبثاً « ميتافيزيقياً » يذكرنا بما كان يفعل جل الفلاسفة اليونانيين ، والإسلاميين المتأثرين بهم ، والذين أفنوا أعمارهم في هذا السبيل . . . وهذا لا يعني أبداً التشكيك بالمحاولات العلمية ـ التجريبية لدراسة الجانب الطبيعي القائم « فعلاً » من الكون ، والسعي للكشف عن قوانين بنيانه المحكم ، لأن هذا هو الموقف الذي يدعو له القرآن في عشرات الآيات . . إنما القصد هو الجانب الفلسفي التصوري لبدايات الخلق ، والبحث عن « العلة » و « المعلول » و « متناهي الأول » . . . إلى آخره . . وكل ما يبينه القرآن عن امتداد عملية الخلق هذه في عصورنا التاريخية الراهنة والمقبلة ، أن الكون ماضٍ في حركته الداينامية نحو الاتساع الدائم بإرادة الله :

﴿ وَٱلسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ (الذاريات : ٤٧) ، وإن هذه الهدفية على المستوى الكوني ، الكلي ، وهذه الحركة صوب الاتساع ، لابد وأن تنعكس في التصور الإسلامي على حركة التاريخ البشري نفسه ، ومصير الإنسان في العالم ، قبل أن يجيء اليوم الذي أعلن عنه القرآن مراراً ، حيث تطوى السموات كطي السجل للكتب ، وتكف الحياة عن الاستمرار تمهيداً ليوم الحساب ، وتبدأ صفحة جديدة في تاريخ الخلق الإلهي الدائم :

﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٤) .

إننا حيثما تنقلنا في أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وتهيئة الظروف الصالحة للحياة على الأرض ،

وتمعّنا فيها ، وجدناها ترتبط ارتباطاً عضوياً أصيلاً بالدور المنتظر الذي بعث الإنسان لكي يؤديه ، وبالقصد والجدوى والنظام والأعمار والغاية التي بعث من أجلها ؛ وهي كلها قواعد أساسية لأي نشاط حضاري فعّال هادف منظم متطور على الأرض :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ، بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ، وَلَهُ مَن فِي ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٦-١٩) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى ٱلْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (هود : ٧) .

﴿ وَجَعَلْنَا ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ﴾ (الإسراء : ١٢) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَى إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٍ ﴾ (البقرة : ٢٩) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَى عَلَى

ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ (الرعد : ٢) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (الحديد : ٤) .

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك : ٢) .

﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ ؟ (القيامة : ٣١) .

﴿ قُلْ إِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ، ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ إِلَى ٱلسَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ، فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ، وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَاءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ، ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (فصلت : ٩-١٢) .

إن كتلة العالم والطبيعة ، وفق المنظور الإسلامي ، قد سخرت للإنسان تسخيراً ، وقد حدد الله سبحانه أبعادها وقوانينها وأحجامها بما

يتلاءم والمهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم ، وقدرته على التعامل العمراني مع الطبيعة تعاملاً إيجابياً فاعلاً . . . ولنتصور كيف سيكون الحال ، على مستوى القدرة على التحضر ، لو كانت الشمس أو القمر ، على سبيل المثال ، أقرب قليلاً أو أبعد قليلاً عن موقعهما المرسوم . . ولو كانت الجاذبية أخف قليلاً أو أثقل قليلاً عن شدّها المحسوب ، ولو كانت مكونات الغلاف الغازي غير ما هي عليه من دقة معجزة في النسب المحددة . . ولو كانت مياه البحار والمحيطات خالية من الملح ، والأجواء راكدة الرياح ، ومحور الأرض عمودياً ، وشكلها غير بيضاوي . . إلى آخره . .

إننا إذا أردنا أن نعتمد مصطلحات المؤرخ الانكليزي « **آرنولد توينبي** » ومقاييسه الحضارية ، فإننا سنرى في العالم « **تحدياً مناسباً** » للإنسان ، ليس « **معجزاً** » ولا هو دون الحد المطلوب لإثارة التوتر البشري للرد .

وكأن إرادة الله سبحانه قد شـاءت أن تقف به عند هذا الحد لكي يحقق الإنسان المدى الأقصى الذي يحقق خلافته في الأرض ، فلم يشأ الله أن يمهد العالم تمهيداً كاملاً ويكشف للإنسان عن قوانينه وأسراره بالكلية ، لأن هذا نقيض عملية الاستخلاف والتحضر والإبداع التي تتطلب مقاومة وتحدياً واستجابة ودأباً وإبداعاً ، ولأنه يقود الإنسان إلى مواقع السلبية المطلقة ، ويسلمه إلى كسل لا تقره مهمة الإنسان على الأرض أساساً ؛ كما أن الله سبحانه لم يشأ ، من جهة أخرى ، أن يجعل العالم على درجة من التعقيد والصعوبة الطبيعية والانغلاق والغموض ، يعجز معها الإنسان عن الاستجابة والإبداع ، الأمر الذي يتنافى أيضاً ومهمته الحضارية التي أنيطت به كخليفة لله على الأرض جاء لإعمار

عالم غير مقفل ولا مسدود :

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي ٱلأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ، وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّـةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ، وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ (الشورى : ٢٧ ـ ٣٠) .

﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ، وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ، وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ، لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ (الزخرف : ١٠-١٣) .

والواقع أن الآيـات الخاصـة بمسألـة التسخير « المتوازن » ، المناسب ، هذا ، منبثـة في مواضـع من القرآن كثيـرة لا تعـد ولا تحصىٰ . . إنه الحدّ « الوسط » الذي يتحدىٰ الإنسان إلى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والإعمار ، ويتجاوز التكشف الكامل أو الانغلاق الكامل الذي يستحيل معهما رد الفعل والإبداع . .

إن هنالك آيات ومقاطع قرآنية عديدة تحدثنا عن هذا « التسخير »

للعالم والطبيعة لخدمة الدور الذي أنيط بالإنسان في الأرض ، وهي تمنحنا التصور الإيجابي لدور الإنسان الحضاري ينأىٰ كلية عن التصورات السلبية لعديد من المذاهب الوضعية التي جردت الإنسان من كثير من قدراته الفاعلة ، وخربته في حواره مع كتلة العالم ، وتطرف بعضها فأخضعه إخضاعاً كاملاً لمشيئة هذه الكتلة وإرادة قوانينها الدايناميـة الخاصة التي تجيء بمثابة أمرٍ لا رادّ له ، وليس بمقدور الإنسان إلا أن يخضع ويساير ويتقبل هذا الذي تأمر به .

وسواء التزم المذهب الوضعي المنطق الديالكتيكي على مستوىٰ الفكر الكلي غير المحدّد ، كما فعل هيغل ، الفيلسوف الألماني ، أو على مستوى المادة وتبدل وسائل الإنتاج وظروفه « الخارجية » كما فعل ماركس وإنغلز ، فإن الإنسان يغدو تابعاً وليس متبوعاً ، وإن الإنجاز الحضاري يجيء وكأن الإنسان جزء منه أو مساحة من مكوناته فحسب ، وإنه ليس أمامه إلا أن يتشكل وفق مقتضيات مسيرة أكبر حجماً من إرادته ، وأوسع مدىً من قدراته ومطامحه ونزوعاته الذاتية والجماعية على السواء .

إننا نلتقي من خلال الرؤية الإسلامية ـ بصيغة أخرى للعلاقة بين الإنسان والعالم تختلف من أساسها . . صيغة السيد الفاعل المريد الذي سخّرت وأخضعت له مسبقاً كتلة العالم والطبيعة لتلبية متطلبات خلافته في الأرض ، وإعماره للعالم على عين الله :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَـارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ (النحل : ١٢) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلأَنْهَارَ ،

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱللَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ (إبراهيم : ٣٢-٣٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلأَرْضِ ﴾ ؟ (الحج : ٦٥) .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (ص : ٣٦) .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت : ٦١) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ ﴾ ؟ (لقمان : ٢٠) .

[٣]

الحدّ الآخر للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية هو « الإنسان » . . والمسألة تبدأ بحادثة خلق آدم عليه السلام باعتبارها حجر الزاوية في الوجود البشري . . في الظروف والدلالات والرموز والإرهاصات التي رافقته وأعقبته :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ، وَعَلَّمَ آدَمَ ٱلأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ

عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هٰؤُلاَءِ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ، يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ، وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ، وَقُلْنَا يَا آدَمُ ٱسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ ، فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ، فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ، قُلْنَا ٱهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تبع هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة : ٣٠-٣٩) .

تلك هي الخطوط العريضة ، الواضحة ، لمسألة الوجود البشري في العالم . . الصورة المتماسكة البيّنة ، التي تساقط عندها قرناً بعد قرن عشرات المحاولات التي تطرفت باتجاه الخيال اليهودي « الاسرائيليات » أو التبرير العقلي المتوتر . . وبقيت الصورة القرآنية الخالدة على وضوحها وبيانها . إننا ـ من خلال هذا العرض المركز ـ نلتقي بقواعد أساسية ومبادىء كلية تتجاوز الجزئيات والتفاصيل ، وتلتقي

ضوءها الشامل على كل ما يهمنا في الموضوع : **خلافة الإنسان عن الله في الأرض ، ومنحه القدرة على التعلم والفعل والاستيعاب ، وتكريمه الأقصى بسجود الملائكة له** . . مجابهته بإبليس وبدء « **الصراع** » بين الطرفين ، و « **الهبوط** » الزمني « **الموقوت** » إلى الأرض ، كأول تجربة من تجارب هذا الصراع . . « **تعليق** » الدور البشري في العالم على تلقي « **الهدى** » من الله وحده ، وتحديد المصير الذي سيؤول إليه موقف الإنسان « **الحرّ** » إزاء هذا الهدى في الأرض والسماء .

تلك هي المبادىء الأساسية التي يقدمها لنا هذا المقطع القرآني ، والتي تعيننا على تفهم الرؤية الحضارية للإسلام بأبعادها الشاملة ، وهي مبادىء تملك من الوضوح والصلابة والاستمرارية والتماسك ما تبدو إزاءه ، غامضة مفككة مضطربة ، كل محاولات التفسير الوضعي لنشأة التاريخ البشري ، وبدء الخليقة ، وأصول الحضارات . . لأنها تكل أمر هذه اللحظة الفاصلة للصدفة العمياء ، أو لتطور وسائل الإنتاج المادية في الخارج ، أو لمحاولة « **العقل الكلي** » ، الغامض غير المحدد ، لأن يعبِّر عن نفسه من خلال العالم ويقطع الطريق الطويل من أجل التجلِّي ، أو لرغبة الطبيعة في تنشئة خلائقها وترقيتهم عن طريق منحهم ، غير المحدّد والمبرّر ، لحياة لا تمتلكها هي نفسها ، الأمر الذي يشكل تناقضاً مكشوفاً إزاء تحديد مصدر الحياة . .

لقد أراد الله للإنسان أن يكون خليفته في الأرض ، فمنحه القدرة العقلية على التعلم ، والمقدرة الجسدية على التنفيذ والعمل والإبداع ، والإرادة « **الحرة** » لاختيار أسلوب الحياة التي يقوده إليها فكره ودوافعه النفسية والجسدية . . ولكي لا يحس الإنسان « **بالدونية** » ولا تدور في

خاطره أية فكرة عن « **سلبية** » دوره في العالم ، رفعت مكانته إلى أعلى مصاف ، وأُمر الملائكة أن يسجدوا له . . وتلك هي أسس تقود ولا ريب إلى تصور دور الإنسان في العالم كقوة فاعلة ، مفكرة ، مريدة ، منفذة ، مستقلة ، مفضلة . . الأمور التي لابدّ منها لأي إبداعٍ حضاري على الأرض .

فإذا ما أضفنا إلى هذا ما سبق وأن أشرنا إليه من أن العالم قد مهد تمهيداً للدور البشري على أرضيته ، وما سنشير إليه بعد قليل من ضرورة « **التعاليم** » التي كانت تتنزل حيناً بعد حين لكي « **تضبط** » و « **تنظم** » حركة الإنسان في العالم ، أدركنا كم هي عميقة شاملة متكاملة الأسس التي منحت للبشرية لكي تعتمدها في ممارسة خلافتها العمرانية ، أو الحضارية في العالم .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن مسألة « **الاستخلاف** » تتكرر أكثر من مرة في القرآن الكريم ، الأمر الذي يؤكد مدى ثقلها في تصميم الهيكل الحضاري للرؤية الإسلامية :

﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً ﴾ (فاطر : ٣٩) .

﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف : ١٢٩) .

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس : ١٤) .

﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ أَإِلَـٰهٌ مَعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (النمل : ٦٢) .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْفَاسِقُونَ ﴾ (النور : ٥٥) .

[٤]

أما الحدّ الثالث للهيكل الحضاري في الرؤية الإسلامية فيتمثل ببرنامج العمل ، أو « الدين » بعبارة أخرى . . والدين في المنظور الإسلامي هو « منهـاج شامل » للحياة يتحرك « الإنسان » على « أرضية العالم » وفق مقولاته وتوجهاته وخططه وأهدافه ، ويمارس « استخلافه » الحضاري للطبيعة التي « سُخّرت » له وفق تعاليمه ومعطياته . . ودونه يضيع الإنسان ، ويفقد القدرة على أداء وظيفته المرسومة . . أي - بعبارة أخرى - يفقد إمكانية تنفيذ دوره المرسوم في طريق الرقي الصعب الطويل . . وهكذا تلقىٰ آدم منذ لحظة هبوطه الأولى « كلمـات » من ربه لتكون بمثابة الهادي والدليل . .

إن الدين ، وفق هذه الرؤية ، يبدو برنامجاً حضارياً . . وهو يكمّل

ويناظر ويناسب طرفي المسألة الآخرين : الأرضية والإنسـان . وما دامت الحياة الدنيا تعني - في المنظور الديني عموماً - تجربة اختبار وابتلاء ، فمعنى هذا أنها تتطلب منا عملاً دائماً وإبداعاً متواصلاً . .

ولكن أيُّ عمل وإبداع يتوجبان على الإنسان في الفرصة التي ستنتهي إلى « أجلها المسمى » ؟ . . إنه ليس ارتجالاً كيفياً ، ولا مواقف جزئية مفككة ، كما أنه ليس فوضىٰ لا يحدها نظام ولا يسلكها هدف . . إنما العمل والإبداع اللذان ينبثقان عن تخطيط مرسوم ، وينطلقان من مواقف كلية شاملة ، ويصدران عن نظام مبرمج إلى غاية دابنامية لا حدود لها أبداً تلك هي « عبـادة الله » والتوجه إليه والتلقي عنه وحده . .

وضـــــوح . . . الهـــدف !!!

إن « عبـادة الله » وحده ، بالمفهوم الديني الشامل ، هي الهدف الذي يتوجب على الإنسان ، فرداً وجماعة ، أن يصعِّد إليه أوجه نشاطاته الحضارية كافة . . وبينما ترسم المذاهب الوضعية - هي الأخرى - أهدافاً لحركتها الحضارية ، تتميز حيناً بالغموض والمثالية ، كما هو الحال عند هيغل ، وتتميز حيناً آخر بالتحديدات المادية الصارمة ، كما هو الحال عن ماركس وإنغلز . . الأمر الذي قاد الأول - وهو يتحدث عن تجلّي المتوحد من خلال « الدولة » - إلى أن يعطيها المبررات الفلسفية كافة لممارسة سياستها العدوانية التي قد تقود ولا ريب إلى الدمار الحضاري والظلم البشري ، وقاد الآخرين إلى إعلان مبدأ دكتاتورية

الطبقة العاملة وتبرير أي أسلوب تعتمده لتحقيق هدفها ما دامت لا تعدو أن تكون منفذة أمينة لمنطق التبدّل في وسائل الإنتاج ، الأمر الذي قادها إلى تنفيذ المجازر الجماعية تجاه القوىٰ المعارضة كلها ، والتي لا تنسجم وبداهات التحضر البشري الحرّ . .

ثم ماذا بعد هذه الأهـــداف التي تؤكد المذاهب الوضعية أنها آتية لا ريب فيها ، وهي في تأكيدها هذا تقع في التناقض الصريح مع « **الداينامية** » التي أقرتها كأساس لحركـة التاريـخ البشري ونمـو الحضارات ؟ مـاذا بعد تجلي المتوحد ودكتاتورية الطبقة العاملة ؟! . .

إن التجربة البشرية أوسع دائماً ، وأغنى وأشمل من أن تحصرها حدود طبقية تقوم على فرض التشابه الجماعي بالقسر ، ومجابهة كل تفرد أو تميز إنساني ، ولا يعدو مصيرها في نهاية الأمر أن يكون إنشاء مجتمعات لا تزيد في أنشطتها ومعطياتها عما نشهده في عوالم النحل والنمل من نظم هندسية صارمة دقيقة ، وعمل دائب وإنتاج متزايد . . أو أن تحصر هذه التجربة البشرية الواسعة الغنية المعقدة المتنوعة الشاملة ، دولة عالمية يتجلى فيها المتوحد الهيغلي ويسوسها عرق ممتاز ، مبررة سلفاً كل ممارساتها العدوانية ونزعاتها الشوفينية .

بينما ترسم المذاهب الوضعية أهدافاً كهذه ، تتميز بالغموض أو الطغيان أو التناقض أو الانغلاق ، نجد الموقف الإسلامي يعلن هدفه الواضح المتوحد المفتوح الذي يستقطب حوله الفاعليات والمعطيات كافة : عبادة الله ، والتوجه إليه ، والتلقي عنه . . ويطلب من القوى

المؤمنة أن تتحرك على مدار التاريخ ، وفق كل الأساليب الإنسانية الشريفة الممكنة لتجميع البشرية حول هذا الهدف الكبير :

﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ (البقرة : ١٩٣) .

ولكي تتوحد في ممارساتها ومعطياتها وعلائقها جميعاً مع النواميس الكونية الشاملة والنظام الإلٰهي الملزم في مداه البعيد ، والذي ما منح هذا القدر من الحرية للإنسان ، إلا لكي يعتمدها باختياره ، في التساوق مع هذا النظام ، والاندماج في المجرىٰ العام لخلائق الله جميعاً ؛ تمييزاً له ـ بهذه الحرية التي تنبثق عن دوره كخليفة ، ومكانته كسيد للعالمين ـ عن سـائر خلق الله . . وثمة فرق شاسع ، على كل المستويات الذاتية والاجتماعية والحضارية ، في النتائج المتمخضة عن نشاط يبذله الإنسان ، وهو متساوق مع نواميس الكون ، متناغم مع مسيره ومصيره ، أو وهو منشق على هذه النواميس ، متنافر معها بدءاً ومصيراً . .

والواقع أن الإنسان ـ فرداً وجماعة ـ ينسى في معظم الأحيان أن دائرة حريته محدودة فيما يقدمه من أفعال ، وما يتخذه من مواقف ، ويلتزمه من أهداف ، وأنه فيما وراء ذلك محكوم بسنن ونواميس إلٰهية تفوق طاقاته وقدراته جميعاً ، ودونها لا يمضي حق وعدل ، ولا يستقيم نظام كوني ، ولا وجود بشري ، ولا تتحقق حكمة الله سبحانه من تيسير الكون والخلائق جميعاً وفق طرائق محددة منضبطة تؤول بهم جميعاً إلى الأهداف التي رسمها علم الله المطلق ، ودفعتهم إليها إرادته التي لا رادّ لها . . والآيات التالية تعرض علينا المسألة في أبعادها المتكاملة ومن زواياها المختلفة :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ ﴾ (الحجر : ٨٥) .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً . . . ﴾ (الرعد : ١٥) .

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَٱلْمَلاَئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (النحل : ٤٩) .

﴿ وَلَهُ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِباً أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾ ؟ (النحل : ٤٩) .

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِن لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّـهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (الإسراء : ١٤) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّـارِ ﴾ (ص : ٢٧) .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ (الروم : ٨) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ، لَهُ مَقَالِيدُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ ٱللَّهِ أُولٰئِكَ هُمُ

ٱلْخَاسِرُونَ ﴾ (الزمر : ٦٢-٦٣) .

﴿ بَلْ جَاءَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ، وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمٰوَاتُ وَٱلأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾ (المؤمنون : ٧١) .

﴿ وَلَهُ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴾ (الروم : ٢٦) .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ ، وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِٱلْحَقِّ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الدخان : ٣٨-٣٩) .

حـــدود الجـــبر والاختيـــــار . . .

ولو تمعّنا قليلاً في موقفنا عبر الكون لرأينا أننا مجبرون ـ بالحق والعدل والنواميس ، وباعتبارنا جزءاً من خليقة الله ، شئنا أم أبينا ـ في مساحات واسعة حاسمة من وجودنا : أننا مجبرون على أن نولد ، ومجبرون على أن نموت . . أننا مجبرون على أن نبعث ، وأن نحاسب على أعمالنا ، وأن نساق إلى جنة أو إلى نار وفق هذا الحساب العادل المحفّز . . أننا مجبرون على أن ننتمي إلى هذا الإقليم أو ذاك ، إلى هذه القبيلة أو تلك الأمة ، وإلى هذا الجنس أو ذاك ، وإلى هذا اللون أو ذاك . . مجبرون كذلك على أن نخضع لمتطلبات حياتنا البيولوجية والحسيَّة ، وعلى أن نتقلب في تجاربنا النفسية بين الحزن والفرح والغم والانشراح ، والخوف والطمأنينة ، والتمزق والتوحد . . وفوق هذا وذاك

فأننا مجبرون على حمل ملامحنا الشخصية المتفردة ، وسماتنا الخاصة وبصمات أصابعنا . . ودون هذه الالتزامات الحتمية تتبدّد الحياة ، وتفقد وحدتها وتماسكها ومعناها . . دون هذا « **الجبر** » تضيع البشرية ، ويحدث التناقض في النواميس ، وتختفي قيم الحق والعدل الأزلية . .

والمساحة المتبقية لممارسة حريتنا إنما منحت لنا لتمييزنا عن سائر خلق الله ، وتفضيلنا على العالمين . . إن هذه المساحة تمتد هي الأخرى إلى أمداء واسعة : الموقف الذي نتخذه من العالم . . الأعمال والأهداف والمعطيات التي نقدمها في الحياة . . هذه الحرية التي تقف بالإنسان والأمم والشعوب والحضارات على مفترق طريقين : فإما أن تكون مواقفنا وأعمالنا وأهدافنا منسجمة مع نواميس الكون وسنن الحياة ، متوافقة معها ، مما يترتب عليها إنجاز حضاري أغنى ، وتوحد بشري أشمل ، وسعادة أكثر عمقاً ، ومصير في الأرض والسماء أشد توافقاً مع مهمة الوجود البشري في الأرض . . وهذا ما سعت الأديان لتحقيقه في العالم ، وما يسعى الإسلام ، وسيظل ، من أجل تحويل البشرية كلها إليه :

﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ . . . ﴾ (الأنفال : ٣٩) .

وإما أن تجيء هذه المواقف والأعمال والأهداف منشقة ، بالقدر الذي منحت فيه اختيارها بطبيعة الحال ، عن نواميس الكون وسنن الحياة ، مرتطمة بها ، الأمر الذي يترتب عليه إنجاز حضاري متفكك ، وتمزق بشري شامل ، وشقاء عميق ومصير سيء في الدنيا والآخرة ، يندّ عن طبيعة الدور الذي بعث الإنسان في العالم لأدائه ، ويجيء مكافئاً لعصيانه وتمرده ورفضه أداء المهمة . . وهذا ما سعت المذاهب

الوضعية ، وتسعى ، لتحقيقه في العالم وتحويل البشرية كلها إليه . .

ومن ثم فإن الإسلام في تحليله لأدوار الأمم والشعوب والحضارات إنما يتخذ هذا المقياس الكوني المصيري الحاسم في تحديد مدى توافق التجربة البشرية مع النواميس أو ارتطامها بها ، ويدعونا إلى مواقع الانسجام والتوافق ، نافخاً فينا روح العمل والإبداع ، مستقطباً ممارساتنا ومعطياتنا في الهدف الواحد الشامل الذي أعلنه الله سبحانه :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

وليس مفهوم العبادة هنا مساحة ضيِّقة لا تتجاوز دائرة « **الشعائرية** » و « **الاتصال الروحي** » بالله . . إنه تجربة حياة كاملة يتوازن فيها الأخذ والعطاء ، وتغدو أشبه بالبرنامج الشامل الذي ينظم فاعليات الجماعة البشرية في الأرض ، ويمنحها معنىً ، ويسير بها إلى هدف واحد مرسوم . . إنه يمنح التجربة الحضارية طابعها الخاص ، ويعطيها الدافع والمبرر ، وينفخ فيها روح الإبداع ، والابتكار والتطور الدائم الفعال . . كما أنه يتجاوز بها السفوح الدنيا للنشاط البشري إلى القمم التي تليق بمكانة الإنسان في العالم . . وبهذا تسقط ـ ابتداء ـ كل السلبيات التي يمكن أن تعلق بأي نشاط حضاري لا يعتمد برنامجاً شاملاً ، أو لا يسعى إلى هدف واضح ، ولا يلتزم أخلاقية الإنسان في مناجاته مع خالقه . . .

[للاطلاع على مزيد من التفاصيل حول الموقف الإسلامي من « **الحضارة** » انظر الفصلين الثالث والرابع من كتاب « **التفسير الإسلامي للتاريخ** » **(للمؤلف)** واللذين اعتمدت بعض معطياتهما في هذا الفصل والذي يليه مع الإضافة وإعادة الصياغة التي تقتضيها طبيعة السياق] .

الفصل الرابع

الملامح الأساسية للفعل الحضاري الإسلامي

إن المقطع السابق يقودنا إلى مسألة أخرى ترتبط أشد الارتباط بالهيكل الحضاري الذي يطرحه الإسلام ، لأنها تتعلق بطبيعة معطيات هذا الهيكل ، تلك هي الملامح الأساسية التي تميز هذه المعطيات وتمنحها شخصيتها المتفردة بما أنها حصيلة لقـاء ذي توجه إيماني بين العالم والإنسان والدين .. ولن يتسع المجال لاستعراض الملامح كـافة ، ونكتفي بـأكثرهـا أهميـة وثقـلاً ، متجـاوزين التفـاصيـل والجزئيات ..

[١] روح العمـــــل ... والإبـــــداع ..

نقرأ في كتاب الله هذه الدعوة الشاملة للعمل :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة : ١٠٥) .

ونستمع إلى الرسول المعلم ﷺ وهو ينادينا :

« **إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر** » .. فنعرف جيداً كيف أن الدور الحضاري للإنسان المسلم يقوم على العمل والإبداع المتواصلين منذ لحظة الوعي الأولى وحتى ساعة الحساب !! ونعلم تماماً كيف أن الحياة الإسلامية إنما هي فعل إبداعي مستمر !!

ويبلغ من تأكيد القرآن على العمل والجهد البشري لإعمار العالم ، على عين الله وتوجيهه ، أن ترد اللفظة بتصريفاتها المختلفة فيما يزيد على الثلاثمائة والخمسين موضعاً ، وهي كلها تشير ـ سلباً وإيجاباً ـ إلى أن المحور الأساسي لوجود الإنسان ـ فرداً وجماعة ـ على الأرض هو العمل الذي يتخذ مقياساً عادلاً لتحديد المصير في الدنيا والآخرة ، وهو « **موقف** » ينسجم تماماً مع فكرتي « **الاستخلاف** » و « **الاستعمار** » الأرضي ..

إن القــرآن الكريم يحدثنا أن مسألة خلق الموت والحياة أساساً إنما

جاءت لابتلاء بني آدم ، أيهم أحسن عملاً :

﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ (الملك : ٢) .

كما يحدثنا في سورة العصر أن موقف الإنسان في العالم سيؤول إلى الخسران بمجرد افتقاد شرطيه الأساسيين : « الإيمان والعمل الصالح » .. ويصدر أمره الحاسم إلى الأمة المسلمة أن تلتزم دورها الإيجابي الفعال في قلب العالم :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّـةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ، وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ وَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران : ١٠٤-١٠٥) .

وفي مكان آخر يصف هذه الأمة بأنها :

﴿ ... خَيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ (آل عمران : ١١٠) .

إن « **الإيمـــان** » الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائماً بمثابة « **معامل حضاري** » سيمتد أفقياً لكي يصب إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب ، ويوجهها في مسالكها الصحيحة ، ويجعلها تنسجم في علاقاتها وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها ، فيزيدها عطاءً وقوة وإيجابية وتناسقاً .. كما يمتد عمودياً في أعماق

الإنسان ليبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية ، ويقظة الضمير ، ويدفعه إلى سباق زمني لا مثيل له لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي يفجر طاقاته ، ويعبّر عن قدراته التي منحه الله إياها على طريق « **القيم** » التي يؤمن بها و « **الأهداف** » التي يسعى لبلوغها ، فيما يعتبر جميعاً ـ في نظر الإسلام ـ عبادة شاملة يتقرّب بها الإنسان إلى الله ، وتجيء مصداقاً للآية :

﴿ **وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا « **السباق** » الحضاري عندما يصف المؤمنين بـأنهم ﴿ **يُسَارِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَاتِ** ﴾ وأنهم ﴿ **لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ ، وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة « **الزمن** » ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات ، ما تلبث أن ترتقي ـ بمقاييس الكم والنوع ـ بمجرد أن يتجاوز « **المسلم** » مرحلة « **الإيمان** » إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا القرآن عنها في أماكن عديدة : « **التقوى** » و « **الإحسان** » . .

وهكذا تجيء « **التجربة الإيمانية** » لا لكي تمنح الحضارة وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها ، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار ، فحسب ، وإنما لكي ترفدها بهذين البُعْدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون والطبيعة :

﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ** ﴾ ؟ (آل عمران : ٨٣) .

﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ**

ٱلْخَاسِرِينَ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

ويعطيها ثانيهما قدرات إبداعية أكثر وأعمق ، تتفجر على أيدي أناس يشعرون بمسؤوليتهم ، ويعانون يقظة ضمائرهم ، ويسابقون الزمن في عطائهم ، لأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر و :

﴿ ... **لاَ يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ فَسَاداً** ﴾ (القصص : ٨٣) .

[٢] مجابهة التخريب والإفساد . . .

وفي مقابل هذا يندّد القرآن بكل عمل أو نشاط خاطىء من شأنه أن يؤول إلى الفساد في الأرض ، وإلى هدم وتدمير المكتسبات التي يصنعها العمل الصالح بالصبر والدأب والمثابرة ، وهو من موقفه هذا يسعى إلى حماية منجزات الإنسان الحضارية ، ووقف كل ما من شأنه أن يعوق مسيرتها ونموها ، وملاحقة أية محاولة لإنزال الدمار بها من الداخل تحت أي شعار كانت .

وهذه الحماية الحضارية لا تنصب على الجوانب المادية « **المدنية** » من الإنجاز البشري فقط ، بل تتجه إلى ما هو أكثر أهمية ، وما يعد أساساً للإنجاز المادي نفسه تلك هي المعطيات الفكرية والأخلاقية والروحية و « **الثقافية** » بمفهومها الشامل من أجل الصمود في المواقع التي بلغها الإنسان وهو يواصل طريقه لإعمار العالم ، عبر سلسلة طويلة من كفاح مبعوثي الله تعالى إلى بني آدم .

إن الإصلاح والإعمار المنوطين **بالاستخلاف** مسائل تتداخل فيها كل الفاعليات الحضارية ، مادية وأخلاقية وروحية ، وإن أي ضرر أو إفساد يلحق بأحدها ينعكس ـ بشكل أو بآخر ـ على الجوانب الأخرى ، وهذا واضح بيّن في أكثر من آية :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ، لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٠٩ـ١١٠) .

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا . . . ﴾ (الأعراف : ٥٦) .

﴿ . . . وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف : ١٤٢) .

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (الروم : ٤١) .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ ٱلدَّارِ ﴾ (الرعد : ٢٥) .

﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ، ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ (الشعراء : ١٥١ـ١٥٢) .

﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَاحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ (هود : ٨٨) .

﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة : ٦٤) .

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً وَهُمْ بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ (هود : ١٩) .

والقرآن الكريم لا يكتفي بتقديم هذه الأمور ذات الطابع السلبي عن الإفساد الروحي والمادي ، وعما يؤول إليه من دمارٍ لحضارة الإنسان ، ولرقيه وسعادته وتقدمه ، ومن عرقلة لدوره في العالم ، كخليفة عن الله ، ولكنه يطلب من الجماعة المؤمنة أن « تتحرك » لوقفه بأسرع ما تستطيع وبأقصى ما تطيق ، لئلا يتحول « الفساد » إلى فتنة عمياء لا ترحم أحداً ولا تبقي ، وهي تدوّم فوق رؤوس الجماعة كلها ، ظالماً أو مظلوماً :

﴿ وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَٱعْلَمُوا أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (الأنفال : ٢٥) .

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ

وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (هود : ١١٦-١١٧) .

إن الرؤية الإسلامية ترفض ، في موقفها من الحضارة ، أشد ما ترفض ، صيغ التجزئة والفصل وإقامة الجدران بين مساحات التجربة البشرية ، وترى فيها وحدة حيوية تسري فيها روح واحدة وتغذيها دماء واحدة ، وإن تجزئتها وعزل بعض جوانبها ، خلال العمل ، عن بعضها ، ليس خطأً فحسب ، لكنه مسألة تكاد تكون مستحيلة ، إذا أردنا ـ مسبقاً ـ أن نصل إلى نتائج صحيحة . .

[٣] التوازن بين الثنائيات وتوحدها . . .

سنطيل الوقوف ، بعض الشيء ، عند هذه المسألة لأنها تكاد تمثل أكثر الملامح الأساسية أهمية في التصوّر الإسلامي للحضارة .

لقد جاء الإسلام لكي يؤكد موقفه من العمل الحضاري من خلال رؤية متوازنة تضم جناحيها على كل ما هو روحي أخلاقي ومادي جسدي في الوقت نفسه . . ونجد أنفسنا ونحن نطالع كتاب الله ، أو نقرأ سنّة رسوله ﷺ بإزاء تأكيدات عديدة ، آيات وأحاديث ، تضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة ، وتدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة ، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات . . إننا بإزاء حركة حضارية شاملة تربط ، وهي تطلب من الإنسان أن ينظر في السماوات والأرض ،

بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع ، بين التلقي عن الله والتوغل قدماً في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وأغاميضها ، بين تحقيق مستوى روحي عالٍ للإنسان على الأرض وبين تسخير قوانين الكيمياء والفيزياء والرياضيات لتحقيق الدرجة نفسها من التقدم والعلوّ الحضاري على المستوى المادي « المدني » . ولم يفصل الإسلام بين هذا وذاك ، إنه ـ كما أكدنا ـ يقف دائماً موقفاً شمولياً مترابطاً ويرفض التقطيع والتجزيء في تقييم الموقف « الحيوي » أو الدعوة إليه . . ولقد انعكس هذا « التوحّد » بين قيم الروح والمادة بوضوح كامل عبر مسيرة الحضارة الإسلامية التي قطعت ـ كما رأينا ـ القرون الطويلة وهي تحتفظ بتوازنها المبدع بين الطرفين ، وأنجزت وابتكرت وكشفت ونفذت الكثير الكثير من المعطيات الحضارية التي لم تهمل جانباً من الجوانب المرتبطة جميعاً ، ارتباطاً وثيقاً ، بخلافة الإنسان على الأرض ، ودوره الحضاري في العالم . . . وما كان لها إلاّ أن تكون كذلك وهي تعمل في ظلال مناخ حضاري متوازن ، نتلمسه بوضوح من خلال آيات عديدة هذه بعض نماذجها :

﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ؟ (الأعراف : ١٨٥) .

﴿ فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ، أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَاءَ صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقّاً ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ، وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً ﴾ (عبس : ٢٤-٣١) .

﴿ فَلْيَنْظُرِ ٱلْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ، خُلِقَ مِن مَاءٍ دَافِقٍ ، يَخْرُجُ مِن بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَائِبِ ﴾ (الطارق : ٥-٧) .

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ، وَٱلأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ، وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ، وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ (ق : ٦-١٠) .

﴿ ... ٱنْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ... ﴾ !! (الأنعام : ٩٩) .

﴿ فَٱنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ؟ (الروم : ٥٠) .

﴿ ... وَٱنْظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ﴾ (البقرة : ٢٥٩) .

﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى ٱلسَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى ٱلأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ؟ (الغاشية : ١٧ : ٢٠) .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ (العنكبوت : ٢٠) . . .

إن القرآن ـ من خلال هذه الآيات ، وغيرها كثير ـ يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة ، على مستوى الكون والعالم ، وأن يختار لنا موقعاً

« تجريبياً » يعتمد النظر والتمعن والفحص والاختبار من أجل الكشف والابتكار والإبداع ، ومن أجل ألا نفقد توازننا الحضاري ، فنجنح باتجاه الروح أو الأخلاق ونهمل التكييف والتطوير الماديين الملازمين لأية حضارة متوازنة تريد أن تتحقق بالشرط الأساسي للوجود الإنساني على الأرض ، وهو عبادة الله ، والتوجه إليه أخذاً وعطاءً .

إن هنالك بداهة من أشد بداهات الإيمان أهمية ، تلك هي أن الله سبحانه ما دام قد « عبّر » عن إبداعه وقدرته الكلية على مستوى الروح والمادة ، والإنسان والطبيعة ، فليس ثمة معنى أبداً لأي موقف بشري من المادة أو الطبيعة يتميز بالهروب أو الاحتقار أو السلبية أو الاستعلاء ، إن هذا « **الموقف** » مهما كانت درجته ، غير مبرر في بداهات الإيمان ، ولا في مقتضيات « **الاستخلاف** » ، ليس هذا فحسب ، بل إنه يقف نقيضاً لهذه البداهات والمقتضيات ، ومن ثم فهو مرفوض في الرؤية الإسلامية ابتداء . .

إن كتاب الله يوجه أنظارنا ، في الآيات السالفة ، إلى أشد الأمور مادية وثقلاً : الطعام ، النطفة الأولى ، الأرض والسماء والجبال ، وإلى دنيا النبات والحيوان . . ويدعونا لأن نسير بحثاً عن سنن هذه العوالم ، وإدراكاً لأبعاد خلقها المعجزة التي لا تتحقق إلا بإرادة كلية نافذة لا يعجزها شيء . . إن القرآن يدعو إلى حضارة تنمو وتزدهر على كل المستويات الروحية والأخلاقية والطبيعية ، وهو يخصص المقاطع والآيات الطوال للإبداع الحضاري في مستواه الطبيعي ، المادي ، ولكن شرط أن تضبطه القيم والمعايير الدينية الآتية من عند الله .

إن كل آية أو مقطع قرآني يتناول مسألة طبيعية ، أو حيوية ، أو مادية

ينتهي بأفعال التقوى والإيمان ، وبالدعوة إلى ربط أية فاعلية بالله . . وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح . . إن منطق « **التوازن الحركي** » الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نتلمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته البينات ، والتي تكفل نمواً سليماً لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتيْ الروح والمادة ، ولا تنحرف باتجاه إحداهما ، مهملة الأخرى ، أو ضاغطة عليها ، مستخدمة إزاءها أساليب القمع والكبت والتحديد . . التوازن الذي يمكن الحضارة من الحركة الدائمة لأن الأهداف التي يضعها أمامها تأخذ مستويات صاعدة لا يحدّها أفق ، ولا يقف في طريقها تحديد صارم . . إنها تبدأ بتأمين متطلبات الحياة اليومية المباشرة وتتقدم ـ بعد هذا ـ صوب إعمال الفكر في قلب العالم للكشف عن نواميسه ، أو في أمداء الكون لإدراك سرِّه المعجز . . هذه الفاعلية التي ما لها من حدود تقف عندها . . ومن ثم توالي خطواتها لتنفيذ أكبر قدر من ضمانات التجربة الروحية الشاملة ، وإيصالها إلى مطامحها التي تتجاوز الأرض إلى السماء ، وتغادر اللحظة الموقوتة العابرة إلى عالم الخلود .

إن القرآن الكريم يبين لنا ـ أكثر من مرة ـ أن علاقة الإنسان بالحاجات المادية الجسدية علاقة صميمة ، وأن حبه لإشباعها مركوز في جبلته التي يشكلها الجسد تماماً كما تحركها الروح والإرادة والقدرات العقلية :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾ (آل عمران : ١٤) .

إلا أن الخطوة الحاسمة التي يخطوها الإسلام متميزاً بها عن سائر المذاهب والنظريات ، أنه يضع أهدافاً أعلىٰ ، وقيماً أوسع وأكثر شمولاً من مجرد تضييق نطاق الحياة البشرية في البحث عن إشباع الحاجات الجسدية ، على ثقلها ، لأن تركيز الهدف النهائي للإنسان في الإشباع وحده يشده إلى الأرض ويلصقه بترابها ، ويبعده عن مواقع الاستشراف الإيماني الشاملة الرحبة :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ ﴾ (محمد : ١٢) .

ولأن توسيع نطاق المناشط والأهداف البشرية ، وتنويعها ، وربطها بآفاق أرقى وأشرف وأكثر سمواً يعطي الحياة قيمتها الحقيقية ، ويمكن الإنسان من تأدية مهمة الاستخلاف الأرضي بحالة من التوازن الفذ الذي يحميها من الالتصاق الساكن بالأرض ، ويمنعها كذلك من التهويم السلبي في سماوات الروح :

﴿ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ، قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ، الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران : ١٤-١٧) .

إننا نستطيع أن نتلمس بوضوح موقف القرآن الكريم إزاء الجانب

المادي ـ الجسدي عموماً ، من خلال حشد كبير من سوره ومقاطعه وآياته .. إن أي حديث عن الكون والطبيعة والعالم ، وتسخير السماوات والأرض ، ومسائل الرزق والكسب والسعي ، وأمور الغرائز والدوافع الجسدية ، والدعوات المستمرة للتنقيب عن أسرار الطبيعة لصالح الموقف البشري على الأرض ، ولأداء مهمته كخليفة جاء لإعمار العالم ، ونداءات التسلح واعتماد القوة المادية ـ إلى جانب القوى الروحية ـ لصد العدوان ، أو لتنفيذ متطلبات حركة الجهاد الدائمة ، وتنظيمات الحياة اليومية المتشعبة ، وغيره كثير ، تأكيد واضح تماماً للأهمية التي يوليها **القرآن الكريم** للجانب المادي ، إلَّا أنه يضع دائماً في صميم هذه العلاقات والممارسات ، ولا نقول بمواجهتها ، إذ أن الرؤ ية الإسلامية ترفض الثنائية والازدواج ، يضع قضايا الروح والقيم والأهداف البشرية العليا التي تحفظ توازن الموقف البشري في الأرض وتمكّنه من أداء مهمة الاستخلاف التي أنيطت به ..

وفي مقابل « **حركة التوازن** » هذه التي يؤكدها الإسلام ، ويدعو المؤمنين إلى التشبث بها ، والتحرك وفق مقاييسها الموضوعية العادلة .. تبدو أية تجربة بشرية تجنح باتجاه المادية ، مهملة الروح ، أو تتشبث بالروحية مهملة المتطلبات المادية ، شذوذاً وانحرافاً ، لأنها تزوير وتزييف للموقف البشري في العالم ، وقسر لتجربة الإنسان الفردية والجماعية ، على التشكل فيما يأباه تكوينها الأساسي القائم على التداخل والتكامل والتوازن بين قيم الروح وقيم المادة على السواء ؛ ولن تكون نتيجة هذا الانحراف الذي يأخذ في الحالة الأولى اتجاهاً مادياً صرفاً ، أو علمانياً يفصل بين شؤ ون الدين والدنيا .. ويأخذ في الحالة الثانية اتجاهاً رهبانياً هروبياً يرفض الدخول في قلب العالم لتغييره بما

ينسجم ومهمة الإنسان في الأرض .. لن تكون نتيجة هذا الانحراف إلا تمزيق الذات الإنسانية على المستوى الفردي والنفسي ، الأمر الذي ينعكس على طبيعة النشاط الاجتماعي ، فيصيبه هو الآخر بالتمزق ، والتشتت ، والازدواج ، وفقدان الهدف ، وانتشار الإحساس المدمر بالعبثية ، وباللاجدوى ، وسيادة نزعة التشاؤم والانشقاق .. وهي مسائل تبلغ ـ بتصاعدها المستمر ـ درجة من الحدّة تجعل الفعل الحضاري عاجزاً عن الإبداع والإنجاز وتقوده إلى التدهور والانهيار والسقوط .

[٤] التناغم والوفـاق مع الطبيعـة والعالم والكون . . .

والمبدأ السابق ينقلنا إلى ملمحٍ آخر لا يقل أهمية .. إن الإسلام في تصوره للعلاقة بين الإنسان والعالم يرسم خطاً جديداً .. خطأً يقوم على الوئام والانسجام ، والتكامل والوفاق ، والتجانس والالتحام بين الإنسان والطبيعة ، بين الجماعة المؤمنة والعالم .. فما دامت قوى الطبيعة وطاقاتها قد سخرت أساساً لخدمة الإنسان ومساعدته على الرقي الحضاري وإعمار العالم ، فإن العلاقة بينهما ليست ـ بالضرورة ـ علاقة قتال وصراع وغزو وبغضاء .. إنما علاقة انسجام وتقابل ، وتواصل وتعاون ، وتكامل وكشف وتنقيب .. إنها علاقة الخادم المطيع بالسيد القدير .. إنه في هذه الحالة لا يصطرع مع خادمه ، أو يستفزه ، أو يرفع السلاح في وجهه .. إنما « **يستخدمه** » بحصافة وذكاء لتأدية واجباته جميعاً في أجواء تسودها علائق الطاعة والمحبة والإبداع .

إن الصراع بين الإنسان والعالم نظرة غربية صرفة ، وهي مهما وضعت في أطر فلسفات شاملة تبدو للوهلة الأولى منطقية ومبررة ، فإننا بمجرد التوغل في دقائقها ومنحنياتها ، سنعثر على منطق الصراع الذي تنبني عليه معطياتها . . صراعاً يضعه « هيغل » في عالم الفكر ويبرر به أية جريمة شوفينية يمارسها شعب أوروبي متفوق لاستعباد وقتل الشعوب المستضعفة ، ويضعه « ماركس » في ميدان التبدلات المادية ليبرر به أية مذبحة تمارسها طبقة ضد طبقة . . أكثر من هذا ، إنه يجرد الإنسان ، في قلب هذا الصراع والتغيير المادي ، من حريته وإرادته ، ويجعله تابعاً مطيعاً لمنطق الصراع المادي هذا ، يأتمر بأمره ويتشكل بقواعده حتى في أشد ممارساته بعداً عن المادية : الدين والفن والعواطف والأخلاق والمطامح والرؤى . .

إن التصــور الإســلامي ، على العكس من هذا كله ، يمنحنا معادلة حيوية ومنطقية لا خلل فيها ولا اضطراب . . إننا ما دمنا قد خلقنا وفق هذه الصيغة التي تشتبك فيها قوى الروح والمادة ، فإن لنا أن ننطلق في نشاطاتنا وممارساتنا من نقطة التَوازن التي لا تجنح ولا تنحرف ولا تميل . . التوازن الذي ينتفي فيه الصراع ، ويتحول الجهد الإنساني الدائم إلى سعي خلاق من أجل التوحد والتكامل والانسجام . . **وإنه ما دامت قوى العالم ـ من جهة أخرى ـ قد سخرت لمهمتنا الأرضية تسخيراً ، فإن علاقتنا بها ليست أبداً علاقة صراع وتناقض واقتتال . . إنما هي محاولة الكشف والتنقيب والاندماج للوصول إلى أكبر قدر ممكن من التفاهم بين الإنسان وبين العالم ، بعد الكشف عن سننه ونواميسه الطبيعية .**

إن اكتشاف الفضاء في المنظور الإسلامي ليس « **غزواً** » كما يراه

الغربيون ، ولكنه فهم وتوغل ووفاق . . إن القمر ليس خصماً يُغزى ، ولكنه خادم مطيع يُنادى فيلبي النداء !!

[٥] المـــيزة التحريريـــــة . . .

لقد كان الإسلام ، منذ اللحظة الأولى ، عملاً تحريرياً . . وعلى المستويات كافة . . وقد رأينا ، ونحن نتحدث عن النقلة التصورية ـ الاعتقادية التي نفذها هذا الدين ، كيف أنه حرّر الإنسان من الضلالات والأوهام والطواغيت والأرباب . . وفي نقلته الأخرى . . النقلة المعرفية . . مارس تحريره من الخوف والجهل والأمية . . وكانت نقلته المنهجية باتجاه تحرير الإنسان المسلم من الخضوع للفوضى ، والانحناء للصدفة العمياء ، وتبصيره بقوانين العمل والحركة التي يسير الكون والعالم والتاريخ بموجبها . .

ونريد هنا أن نتوغل أكثر في هذه الميزة « **التحريرية** » التي تصبغ حضارة الإسلام وتتشابك مع نسيجها الفذ . . فنضع أيدينا على دعوة ملحة لتحرير رغبات الإنسان وأشواقه الجسدية والروحية ، وفتح الطريق أمام دوافعه وحاجاته ومنازعه !! وهذا التوجه يمثل امتداداً ولا ريب لرؤية الإسلام التوازنية الأصيلة التي مرت بنا خطوطها العريضة قبل قليل .

إن إحدى الآيات القرآنية تتحدث بصراحة عن « **الزينة** » ، آمرة بني آدم أن يمارسوها ، وأين ؟ عند كل مسجد ، حيث يؤدي الإنسان غاية تجربته في التجرد والانسلاخ عن زخرف الحياة الدنيا :

﴿ يا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ . . تعقب ذلك دعوة صريحة ـ أيضاً ـ إلى الأكل والشرب شرط ألا يبلغ ذلك حدّ الإسراف :

﴿ وَكُلُوا وَٱشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأعراف : ٣١) .

ثم ما تلبث الآية التي تليها أن تتساءل بصيغة استنكارية واضحة :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَٱلطَّيِّبَاتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ كَذٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٢) .

إن المحرم والمرفوض في الإسلام هو الفاحشة ، أياً كان مصدرها الجسد أم الروح ، وليس ثمة رفض أو تحريم أو احتقار موجّه ابتداء إلى الجسد بما أنه جسد ، وإلى غرائزه وحاجاته بما أنها غرائز وحاجات تقف في طريق الروح !! إننا نقرأ في الآية التي تلي ذلك ـ وهذا الارتباط بين الآيات الثلاث يحمل مغزاه الواضح ـ نقرأ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَىٰ ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) .

وما أكثر الآيات التي تستنكر على بعض أتباع الديانات المنحرفة

السابقة تحريمهم الكثير من الطيبات التي أحلها الله ، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى استغلال الطيبات التي أحلها الله ، وما أكثر الآيات التي تدعو الإنسان إلى استغلال الطيبات دون إفراط أو تفريط . . وإلّا لم كان خلق الله سبحانه لها ، وتفجير خيراتها وتنوعيها في أنحاء الأرض ؟

﴿ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ، إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ . . . ﴾ (آل عمران : ٩٣) .

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هٰذَا . . . ﴾ (الأنعام : ١٥٠) .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ﴾ ؟ (يونس : ٥٩) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ (الأنعام : ١٤١) .

﴿ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام : ١٤٨) .

﴿ لَوْ شَاءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلاَ آبَاؤُنَا وَلاَ حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (النحل : ٣٥) .

إن الآيتين الأخيرتين تضعان التحريم الاعتباطي جنباً إلى جنب مع الشرك بالله ، وتنعى على أولئك الذين يمارسون هذا التحريف بشأن الحقائق الكونية وبحق أنفسهم على السواء ، قائلين : إن هذا قدر لا مفر لهم منه . . **إن كبت الغرائز هو تزوير للموقف الإنساني في الأرض ، والشرك بالله هو أخطر تزوير ، ومن ثم كانت الممارسة البشرية التي تعتمد التزوير مرفوضة في القرآن مهما صغر حجمها أو كبر .**

بل إننا نجد في الآية التي تقول :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ (النساء : ١٦) .

إن كبت بعض جوانب الغريزة ، أو الحدّ من إشباعها القائم على ضرورة التنويع يجيء بمثابة « عقـاب » وليس ـ كما قد يتصور بعضهم ـ قاعدة من قواعد الدين . . على العكس ، إن إحدى كبريات البداهات الدينية التي نتعلمها من القرآن الكريم ، **أن الحلال هو القاعدة العريضة في ميادين الإشباع الغريزي جميعاً : طعاماً وشراباً وجنساً ومسكناً وملبساً ، وأن التحريم مسألة « استثنائية »** محدودة المساحة ، ضيِّقتها ، حتى إن القرآن ليعتبر توسيعها بشكل اعتباطي كفراً وافتراءً على الله :

﴿ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَاءً عَلَى ٱللَّهِ . . . ﴾ (الأنعام : ١٤٠) .

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾ (النحل : ١١٦) .

ويحذر المؤمنين من هذا السلوك المنحرف المعارض لطبيعة التركيب البشري الذي صاغه الله وعجنه ، وهو أدرى به :

﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (المائدة : ٨٧) .

﴿ يَٰأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ؟ (التحريم : ١) .

ويبين لهم أن إحدى مهام الأنبياء الأساسية ، أن يجيئوا ـ دائماً ـ لكي يعيدوا الأمور إلى نصابها ، ويقفوا بمواجهة التزوير . . وهنا في مجال التجربة الغريزية ، يجيئون لكي يفتحوا الطريق العريض أمام متطلباتها مرة أخرى لكي يمضي الإنسان المؤمن إلى أهدافه الروحية دون أن تعيقه الضرورات :

﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ (آل عمران : ٥٠) .

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَائِثَ ﴾ (الأعراف : ١٥٧) .

إن نداء يطرحـه القرآن لبني آدم في مواضع كثيرة : ﴿ كُلُوا مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾ (البقرة : ١٦٨) ، يقودنا إلى بدهية أخرى ، كثيراً ما غفلنا عنها ، لشدة ظهورها ووضوحها ، إن الله سبحانه قد « سخَّرَ » لنا الأرض بما ينسجم وتركيبنا الآدمي من أجل أن نواصل مسيرتنا لإعمار العالم وعبادة الله وحده ، وإنه لمن التناقض المكشوف ، المرفوض في القرآن قطعاً ، أن يركّب الإنسان ـ من قبل خالقه ـ تركيباً معيناً ، وأن تسخر الأرض ـ بإرادة الله ـ لتلبية متطلبات هذا التركيب ، ثم تجيء

الأديان ـ من عند الله أيضاً ـ لكي تنصب الحواجز وتضع الأسلاك الشائكة بين متطلبات التركيب الآدمي وبين خيرات الأرض ومنافعها المسخرة .

إن هذا التناقض إنما يجيء على أيدي طبقات « رجال الدين » التي يقوم دورها على التزييف ، ووضع الحواجز ، ونصب العراقيل في دروب المؤمنين من أجل أن تضطرهم اضطراراً للجوء إليها ، وطلب معونتها ، قبل السماح لها بالذهاب إلى الله .. وهناك يبدأ الاستغلال والاستنزاف والأكل بآيات الله ثمناً قليلاً .. وقد قطع الإسلام الطريق على بروز طبقات محترفة كهذه ، ومن ثم فلا داعي للحديث أساساً عن تزوير كهذا يقف بمواجهة إرادة الله في تحقيق الانسجام الكامل بين الإنسان والعالم .

وما يقال عن حاجة الإنسان إلى الطعام يمكن أن يقال عن حاجاته الأخرى .. سواء بسواء ، ولقد وقفنا بعض الشيء عند المسألة الأولى لكي تبدو للقارىء بمثابة معيار موضوعي ، مستمد من القرآن الكريم مباشرة ، يقيس به موقف الإسلام من سائر الحاجات الحيوية للإنسان .

[٦] الإنجاز الحضاري ليس هدفاً نهائياً ..

إن الإسلام وهو يحض المؤمنين على التسارع الحضاري : عملاً وإنجازاً وإبداعاً مسؤولاً ، ويعلن رفضه للكسل والقعود والاتكال والعبور السالب للعالم دون تغيير أو إعمار ، لا يتجاوز ، انطلاقاً من موقعه الوسطي الشامل ، مسألة في مقابل هذا كله علىٰ غاية في الأهمية ، لأنها تعد إحدى الملامح الأساسية الفاصلة بين التجربتين

الحضاريتين : الدينية والوضعية ، تلك هي التأكيد الدائم على أن حياة الإنسان في الأرض ، فرداً وجماعة ، ليست أبدية دائمة ، إنما هي عابرة موقوتة ، وأن معطياته فيها ليست خالدة باقية ، إنما هي معرضة ـ في أية لحظة ـ للدمار والزوال بناءً على طبيعة « الحياة الدنيا » القائمة على التغير والتنوع ، والصعود والهبوط ، والميلاد والموت .. وأن الحياة الحقيقية هي الحياة الأخرىٰ التي تتميز بالبقاء والدوام ، والتي كتب للإنسان فيها الخلود المطلق ، ومن ثم فإن كل ما يقدمه في هذه الحياة الفانية من أعمال ومنجزات يجب ألا يكون هدفاً بحد ذاته ، كما هو الحال في جل التجارب الوضعية ، إنما وسيلة فحسب لتهيئة الحياة الدنيا لعبادة الله وحده ، وإيجاد المناخ المناسب لممارسة « الاستخلاف » ..

وهكذا يغدو الإنجاز الحضاري في الإسلام وسيلة إلى غاية أكبر ، ويكتسب في الوقت ذاته « أخلاقية » لا نجدها في سائر الحضارات ، تصدّه عن استخدام طاقاته وقدراته في غير الطريق الذي تحتمه هذه الغاية الشريفة ، البعيدة ، التي لا تقف عند حد ..

إن القرآن الكريم ، من أجل أن نظل دوماً في الموقف الوسط الذي يميزنا عن سائر المواقف القلقة النسبية ، المتأرجحة ، يحدثنا في أكثر من موضع عن هذه المسألة .. إلا أنه يجب ألَّا يخطر ببالنا لحظة أنه يدعونا للزهد أو الفرار ، لأن هذا يمثل تناقضاً أساسياً مع مجمل معطياته ، ومع تأكيده في مئات المواضع على ضرورة العمل والإبداع .. إنما هو تقرير للحقيقة النهائية ، وتثبيت للموازين العادلة ، وعرض مقارن لعالميْ الفناء والبقاء ، ورؤية للمؤمنين تصدهم عن الإفساد والطغيان :

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٦٤) .

﴿ ٱعْلَمُوا أَنَّمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (الحديد : ٢٠) .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَاحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ، ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (الكهف : ٤٥-٤٦) .

ويتضح هذا المعنى الأخلاقي الإيجابي للمسألة من خلال العديد من الآيات التي تندّد بالغرور البشري الذي ينبثق عن الالتصاق الكامل بالحياة الدنيا ، ويتمخض عن الظلم والإفساد والطغيان :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ آيَاتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا . . . ﴾ (الجاثية : ٣٥) .

﴿ . . . وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (الأنعام : ١٣٠) .

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ (لقمان : ٣٣) .

﴿ بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴾ (فاطر : ٤٠) .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥) .

إن نسبية التجارب البشرية ، وعدم دوامها ، لا تبدوان فقط بعرضهما على مطلقات الآخرة وخلودها ، إنما من خلال حركة التاريخ البشري كذلك . . الحركة الدائمة التي ترفع وتخفض ، وتقدم وتؤخر ، وتنشىء وتعيد ، بإرادة الله ، ووفق نواميسه في الكون :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (يونس : ٢٤) .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ، هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ، وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّالِمِينَ ، وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٧-١٤١) .

الخاتمة

نحو «تكنولوجيا» إسلامية

لقد منحنا الإسلام مفتاحين للخلاص ، كلما حزب بنا الأمر ، وضيَّقت حركة التاريخ الخناق علينا ، وتجاوزتنا القيادات الأخرى ، ووجدنا أنفسنا مدفوعين إلى مناطق العتمــة والظلال . .

أول هذين المفتاحين : « التغيير الذاتي » وثانيهما : « الإعداد الذاتي » وبدونهما لن تبدأ حرب صوب التقدم إلى المواقع الأمامية . . أبداً . . ولن يكون التجاوز والانطلاق . .

وإننا لنجد في كلا المفتاحين مساحة واسعة تحتلها مسألة إعادة تشكيل العقل المسلم كشرط أساسي للتحقق بالتغيير الذاتي والإعداد الذاتي على السواء . .

فأما « **التغيير الذاتي** » فقد طرح القرآن الكريم حده الإيجابي بقوله :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ (الرعد : ١١) ، وطرح حده السلبي بقوله :

﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . . ﴾ (الأنفال : ٥٣) .

وهو تغيير يمتد إلى المساحات كافة ، وسائر المكونات النفسية الأساسية : العقلية والروحية ، والجسدية ، وكل العلاقات والبنىٰ الداخلية مع الذات ومع الآخرين ، والتي تمكن الإنسان المسلم والجماعة المسلمة من مواجهة حركة التاريخ . .

إن تأكيد الإسلام على قانون (التغيير) يعني أنه يمنح الإرادة البشرية المؤمنة فرصتها في صياغة المصير ، في التشبث به أو استعادته إذا ما أفلت من بين يديها . . ومن ثم فإنه ما أن تتهيأ هذه الإرادة للعمل عن طريق الشحذ النفسي ، والاستعداد الروحي والعقلي والأخلاقي والجسدي ـ كذلك ـ حتى تكون قادرة على مواجهة التحديات من أي نوع كانت ، وبأي درجة جاءت ، فتعجنها وتصوغها من جديد لصالح الإنسان ؛ وهكذا يعود الإنسان ـ في المنظور الإسلامي ـ لينتصر على التحديات ، وليستعيد قدرته الأبدية على التجدّد والتطور والإبداع . .

وليس ثمة ما يقف في طريق امتلاك ناصية التغيير الذاتي ، كالرؤية التجزيئية أو الموقف النصفي !!

لقد فهم كثير من المسلمين عملية التغيير فهماً خاطئاً ، وتصوروها مجرد تجديد للتوثب الروحي ، أو إعادة التزام بحشد من القيم

الخلقية ، أو السلوكية التي دعا إليها الإسلام . .

وسنقع في الخطأ نفسه لو قلنا : إن الحلّ يكمن « **فقط** » في إعادة تشكيل العقل المسلم . .

إن التغيير الذاتي عملية شاملة تغطي الطاقات البشرية كافة : عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية وجسدية . . وأي تجزيء في الرؤية ، أو الموقف ، يقتل المحاولة في المهد . . . ولكننا بتأكيدنا على التشكل ، أو التغيير العقلي ، إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار ، دوماً ، سلّماً للأولويات ، فتبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية . . ولما كان التركيز في عملية التغيير قد انصبّ في معظمه على الجوانب الأخرىٰ ، بعيداً عن العقل ، ولما كانت عملية إعادة التشكل العقلي ضرورة قصوىٰ وشرط حاسم لاستكمال عملية التغيير ، كان وقوفنا عندها طويلاً في هذا البحث . . بل كان هذا البحث بمثابة عرض وتحليل لهذه المعضلة بالذات . .

مرة أخرىٰ . . فإن التغيير الذاتي بمنظوره الشامل ، وبوضعيته المركبة ، وجهده المتعدد . . لهو أحد مفتاحين لابدّ منهما للتحقّق بالقوة والفاعلية والخلاص . .

فأما المفتـــاح الثاني فهو « الإعـــداد الذاتي » . .

وإذا كان « **التغيير** » ينصب على الذات المسلمة في إطارها الفردي بالدرجة الأولى ، لكي ينسحب ـ من ثم ـ على الجماعة فيمكن لها في الأرض . .

فإن « **الإعداد** » ينصبّ على الجماعة المسلمة بالدرجة الأولى لكي

يحمي ـ من ثم ـ الذات المؤمنة من الحصار والتضييق في العالم . .

والقرآن الكريم يقولها صراحة ، وبالتعبير نفسه :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ . . . ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

ولن يتحقق الإعداد المطلوب إن لم تستجش طاقات الإنسان المسلم كافة ، ويعاد تشكيل عقله ، كما أراد له الإسلام أن يكون ، ليتمكن من أداء دوره في هذه المهمة الكبيرة ، وللوصول إلى شواطىء الأمن واليقين ، والتحقق بسياج القوة التي ترهب الأعداء وتمكن للأمة الإسلامية في الأرض . .

والعلم الحديث ليس مارداً كافراً لكي نتبرأ منه وندعو لحربه ، ولكنه أداة حيادية يمكن أن نوظفها لخدمة ديننا وتعزيز عقيدتنا . .

والعلم الحديث ليس ابن الحضارة الغربية وحدها ، لكي نتردد في احتضانه وتنشئته . . ولكنه تمخض أبدي لتراكم في الخبرة البشرية ، وحضارات شتىٰ أسهمت بها معظم شعوب الأرض الحية . . وكان لحضارة الإسلام نصيب وافرٌ في وضع دعائمه ، وتصحيح مناهجه ، وطرح الكثير من معطياته . .

وقد تكلمنا عن موقف الإسلام من العلم الحديث في غير هذا المكان [كتاب « **مدخل إلى موقف القرآن من العلم** »] ، ولن يتسع المجال هنا لطرح ما قلناه هناك ، والنتيجة التي يطمئن إليها الإنسان ، إزاء المسألة ، وبإيجاز شديد ، أن معطيات القرآن الكريم قد امتدت لكي

تشمل أطراف العلم جميعاً ، فتعالجها وتنير لها الطريق ، وتبرمج لمناهجها ، وتقدم طرفاً من كشوفها ونتائجها : الفلسفة « **أو الأهداف** » ، والمنهج ، والحقائق ، والتطبيقات . .

إننا نجد العديد من المبادىء الأساسية للحياة الإسلامية التي تحدثنا عن بعض جوانبها ، من مثل الاستخلاف والتسخير والتوازن والارتباط المحتوم بين معجزة الخلق ووجود الخالق . . لا يمكن تنفيذها وتعزيزها ، وتعميق معطياتها في العالم دون اعتماد العلم أداةً لتحقيق هذه الأهداف . . . كأسلوب أو برنامج عمل لخدمة التصور الإسلامي الذي يقوم على هذه الأسس .

ونجد **القرآن الكريم** يطرح ، لأول مرة ، كما سبق وأن مرّ بنا في سياق هذا البحث ، منهجاً حسيّاً تجريبياً للنشاط المعرفي ، هو نفسه الذي يعتمده اليوم العلم الحديث . .

هذا إلى أن **القرآن الكريم** طرح حشداً من الحقائق والكشوف العلمية في ميادين شتى ، وخاصة الفلك والطبيعة والجغرافية والطب والنفس . . إلى آخره ، جاءت معطيات العلم الحديث لكي تؤكدها وتزيدها إيضاحاً . . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ . . . ﴾ (يونس : ٣٩) ، ولقوله تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ؟ (فصلت : ٥٣) .

أما التطبيقات « التقنيَّة » التي تتمخض في نهاية الأمر عن منهج العلم

وحقائقه النظرية الصرفة .. فإن للقرآن الكريم كلمته فيها هي الأخرى .. وقد يبدو الأمر غريباً للوهلة الأولى .. إذ ما علاقة كتاب الله « بالتكنولوجيا » وهي نتاج يتميز بالجدة والحداثة لمعطيات العلم في شوط متأخر من مسيرته الطويلة ؟!

ولكن الدهشة تزول إذا عرفنا جيداً أن القرآن الكريم قالها صراحة ، وفي أكثر من موضع .. وأنها تواترت فيه حتى بلغت مرتبة اليقين .. ولكن أين الآذان التي تسمع ، والعيون التي تبصر ، والعقول التي تتدبر وتفكر وترى ؟

وإذْ كان هذا الجانب من العلم الحديث يرتبط أشد الارتباط بما نحن بصدده من التحقق الإسلامي بالقوة ، ومن الدعوة إلى قيام عصر « التكنولوجيا الإسلامية » ، وتشكيل المجتمع الإسلامي التقني .. فسوف نقف عنده بعض الشيء في ختام رحلتنا هذه مع « إعادة تشكيل العقل المسلم » ، رغم أننا كنا قد وقفنا عنده بمزيد من التفاصيل في أكثر من كتاب ... [« التفسير الإسلامي للتاريخ » و« آفاق قرآنية » و« مدخل إلى موقف القرآن من العلم »] ...

إننا نطالع في القرآن الكريم هذه الآيات :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ، أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ، يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ

مِن مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ : ١٣) ، وفي مقطع آخر نجده في سورة (ص : ١٧-٢٠) .. نقرأ ، تأكيداً واستكمالاً للموقف :

﴿ اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ، إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ، وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ ،

ثم تعود الآيات تتحدث عن سليمان كرة أخرى :

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ، فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ، وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ، وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ، هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (ص : ٣٥-٣٩) .

إننا هنا نلتقي باثنين من عباد الله المصطفين ، **داود وسليمان عليهما** السلام ، وقد سخّرت لهما قوى الطبيعة الهائلة والطاقات الغيبية التي لا يحدُّها جدار زماني أو حاجز مكاني ، سخرت جميعاً لكي تعمل تحت إمرة الإنسان ، المؤمن المسؤول : الجياد ، الطير ، الحديد ، الريح ، القطر « النفط » .. في عدد مشار إليه من مساحات العمل « التقني » التطبيقي : صناعة وعمراناً وبناءً وفنوناً .. وتثير عجبنا في ميدان هذا النشاط تلك الإشارات الواضحة إلى الحديد والوقود ، اللذين

قد تبين لنا في قرننا العشرين هذا ، كم هما ضروريان أساسيان للحضارة المعاصرة ، ولكل حضارة تريد أن تعمر وتصنع وتبني وتتفنن وتطبق . . ويثير عجبنا كذلك أن الله سبحانه لم يمنح الحديد فحسب لداود ، ولكنه يعلمه كيف يليِّنه ، فبدون هذا لن تكون ثمة فائدة « **صناعية** » لهذا الخام الخطير . .

إننا هنا نلتقي بالإنسان المؤمن ، بل بالنبي ، الذي يبلغ من فهمه عن الله وشكره لنعمائه أن يمنحه خالقه هذا القدر الكبير من القوىٰ المذخورة ، ويكشف له عن هذه الطاقات الطبيعية الهائلة من أجل أن يبني ويعمر ويتفنن ويبدع ويبتكر ويتقدم بالحياة صعداً . على طريق الخلافة المسؤولة ، المؤمنة ، الراشدة ، التي لا ينحرف بها هذا النعيم الكبير عن التزام الموقع الصحيح في العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان .

وفي سورة (الحديد : ٢٥) نقرأ هذه الآية :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

سورة الحديد ؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها ؟ هل ثمة أكثر إقناعاً لنزعة التحضر والإبداع والبناء والتطبيق ، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءاً أساسياً من أخلاقيات الإيمان وسلوكيته في قلب العالم ، من هذه الآية التي تعرض خام الحديد كنعمة كبيرة أنزلها الله لعباده ،

وتعرض معها المسألة في طرفيها اللذين يتمخضان دوماً عن الحديد : « **البأس الشديد** » متمثلاً باستخدام الحديد كأساس للتسلح والإعداد العسكري ، و « **المنافع** » التقنية التي يمكن أن يحظى بها الإنسان من هذه المادة الخام في مجالات نشاطه وبنائه « **السلمي** » وهل ثمة حاجة للتأكيد على الأهمية المتزايدة للحديد بمرور الزمن ، في مسائل السلم والحرب ، وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوىٰ الدولية سلماً وحرباً ؟ إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن « **ترهب** » أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل ، وتستطيع ـ أيضاً ـ أن تخطو خطوات تقنية واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها ؟!

إن كل موقف قرآني يشكل ـ ولا ريب ـ وحدة عضوية لا تنفصم عراها ، يمكن أن نحظى بأبعادها وصيغتها النهائية بمجرد أن نجمع إلى بعض كل الآيات التي تغذي هذا « **الموقف** » وتشكل مادته الحيّة : في الاقتصاد ، في الاجتماع ، في السياسة ، في التشريع ، في النفس ، في العلاقات الدولية ، في العقائد ، في الآداب ، في المعاملات . . إلى آخره . . في كل قطاع من هذه القطاعات نلتقي بعدد من المواقف المتكاملة المحبكة التي تصنعها وتصورها وتمنحها صيغتها النهائية مجموعة من الآيات والمقاطع المنبثة في ثنايا القرآن .

والآن ونحن نتكلم عن **الحديد** نلتقي بسورة كاملة بهذا الاسم ، ونتذكر في الوقت نفسه الآيات التي مرت بنا قبل قليل من سورة « سبأ » تلك التي تذكر نعمة الله على داود عليه السلام بتسييل **الحديد** !! ، وهي

بصدد الحديث عن الإعمار والبناء والتصنيع ، ونتذكر أيضاً « ذا القرنين » وهو ينادي الجماعة المضطهدة لكي يحميها من الغزاة :

﴿ آتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ، حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ، فَمَا ٱسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴾ (الكهف : ٩٦-٩٧) .

وتفرض آية أخرى نفسها لإتمام المسألة ، تلك التي تنادي الجماعة الإسلامية :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا ٱسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ . . . ﴾ (الأنفال : ٦٠) .

لكي ما يلبث الإنسان المسلم والجماعة المسلمة أن يعتمدوا الحديد ، هذا الخام الخطير المذكور في عدد من المواضع ، والذي سميت إحدى السور باسمه ، مادة أساسية لإعداد « القوة » وإرهاب الأعداء في عالمٍ يضيع فيه ويداس من لا يملك القدرة على إرهاب أعدائه ، هذه القدرة التي ترتبط دوماً بمدى التقدم التقني « التكنولوجي » ارتباطاً عضوياً ، وتسير معه في المنحنيات نفسها التي يجتازها في أغلب الأحيان .

إننا يجب أن نلتفت ـ هنا ـ إلى ذلك التداخل والارتباط الصميمين ، في **آية الحديد** ، بين إرسال الرسل وإنزال الكتب معهم ، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس ، وبين إنزال الحديد الذي

يحمل في طياته « **البأس** » ، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾ و ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ . . إنها العقيدة التي تعرف كيف تشد الإنسان إلى أعماق الأرض ، وتدفعه إلى التنقيب فيها من أجل إعمارها وحمايتها . . وإن المسلم لن تحميه وتنصره إلاّ يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتصوغه من أجل الحماية والتقدم والنصر . . وإنه ـ بمجرد أن يتخلى عن موقفه الفعال هذا ، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بحركة الجهاد الدائمة ، ويختار ـ بدلاً من ذلك ـ مواقع الفرار والانتظار الاتكالي لمعونة الله ، فإنه يتناقض مع نفسه وعقيدته وسوف يهزم لا محال ما دام قد أشاح عن هذا النداء القرآني الذي يكاد يصرخ بأعلى نبرته أنه بدون الاعتماد الواعي ، المسؤول ، الخبير ، على مصادر القوة والبأس فلن يكون هناك « **نصر** » ولا « **تقدم** » ولا « **حمايـة** » للموازين والقيم العادلة التي جاء الدين لتنفيذها في الأرض ، حتى ولو حبس المؤمنون أنفسهم في المساجد ، السنين الطوال ، يبكون ويتضرعون .

إن الدعوة لقيام مجتمع إسلامي « **تكنولوجي** » ، وبدء عصر « **تكنولوجيا إسلامية** » ، إنما هو استمرار طبيعي لموقف الإسلام المفتوح من معطيات العلم في آفاقه ، واستكمالاً للدعوة إلى إعادة تشكيل العقل الإسلامي من أجل أن يكون أكثر قدرة على استيعاب المتغيرات وتطوير الحياة الإسلامية وحمايتها ـ في الوقت نفسه ـ من التفكك والعدوان .

إن « **التكنولوجيا الإسلامية** » ، التي ترتبط ـ بطبيعة الحال ـ بخلفيّتها الإيمانية ، تعدّ « **ضرورة** » ملحة ليس فقط على مستوى الجماعة

الإسلامية نفسها ، ولكن على مستوى البشرية عامة .. لأنها ستعرف كيف تتحرك ، وتنضبط على هدي القيم الدينية والإنسانية القادمة من عند الله ، فتكون حقاً في خدمة « الإنسان » الذي عانى الكثير من تكنولوجيا الكفر ، والعرقية ، والأنانية ، والعصيان ..

إن على العقل المسلم الجديد أن يأخذ بتلابيب الطاقة التي كشف عنها النقاب ، والقوانين العلمية التي تحيل الطاقة إلى حركة وفعل وتطبيق وإبداع .. أن يمسك برقبة الزمن فيضيفه إلى المادة لتحقيق اللحاق بمسيرة الخصم ، والسبق عليه ، ما دامت قيم هذا الدين تؤكد بإلحاح على فكرة الزمن ، وعلى أن المؤمن الحق هو الذي يعرف كيف « يسارع » وكيف « يسبق » !!!

وسواء شئنا أم أبينا ، فنحن ـ أولاً وأخيراً ـ مسؤولون عن هزائمنا العقيدية ، وانحطاطنا السياسي ، وتخلفنا الحضاري .. ومرفوضة كل محاولة تسعى إلى اتخاذ ممارسات الأمم والجماعات الأخرى مشجباً لتعليق هذه الهزائم وتبريرها .. ولن ينقذنا إلّا فعلنا الخاص ، ولن يعيدنا إلى موقعنا المتقدم إلّا تحملنا الكامل لمسؤوليتنا ..

إن القرآن الكريم يؤكد في أكثر من موضع على أن أية أمة ، مؤمنة كانت أم غير مؤمنة ، إنما تحمل مسؤوليتها كاملة إزاء نفسها ، أمام الله ثم أمام التاريخ ، ولن تحمل أبداً تبعة أمة أخرى إلّا بالقدر الذي تفرضه عليها مسؤوليتها ذاتها تجاه الإنسان والعالم . فكما أنه على المستوى الفردي يؤكد الإسلام مسؤولية الإنسان عن أفعاله فحسب ، فكذلك الحال على مستوى الأمم والجماعات :

﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ

رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . . . ﴾ (البقرة : ٢٨٦) .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة : ١٤١) .

ومن قبل تساءل المسلمون الذين انهزموا في معركة « أُحد » عن سبب هزيمتهم غير المتوقعة تلك .. فأجابتهم كلمات الله :

﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) . . .

والمفاتيح « عندنا » أولاً وأخيراً ، فإن لم نصل اليوم الذي نبني فيه « مختبراتنا » ونشغّلها بعقولنا .. ونصنع سلاحنا ونستخدمه بأيدينا .. إن لم نُعِد تشكيل عقولنا لكي « تعمل » كما أراد لها الإسلام أن تعمل .. فلن تكون لنا خارطة أو مكان في هذا العالم ، ولن يكون بمقدور ألف سنة أخرى من الاتكالية وصور التعبّد والذكر القائمة أن تصنع المعجزة !!!

ذلك هو التحدِّي الحقيقي الذي يقف قبالتنا صباح مساء ..

وهذا هو طريق الاستجابة المرسوم في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ...

هذا هو الجواب ....

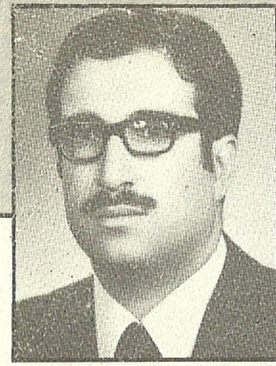
الفهرس

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية
١٤٠٣/٥١هـ - ١٩٨٣م

ما الذي أصاب « العقل المسلم » فصده عن المضي في الدرب إلى غايته ؟ كيف ضربه العقم بعد ذلك التوهج والإبداع اللذين أشعلت فتيلهما كلمات الله وتعاليم رسوله ﷺ ؟

إن التأكيد على ضرورة إعادة تشكيل العقل المسلم لا يعني أبداً التقليل من شأن العوامل الأخرى ، لاسيما وأن التجربة الإسلامية تتعامل مع الإنسان وحدة متوحدة ، ونسيجاً متشابك الخيوط ، وتتأبى على التفكيك والتمزيق والانتقاء ...

ليس ثمة ما يقف في طريق امتلاك ناحية التغيير الذاتي ، كالرؤية التجزيئية أو الموقف النصفي ... لقد فهم كثير من المسلمين عملية التغيير فهماً خاطئاً ، وتصوروها مجرد تجديد للتوثب الروحي فقط ، أو إعادة التزام بحشد من القيم الخلقية أو السلوكية التي دعا إليها الإسلام ..



الدكتور عماد الدين خليل

- من مواليد الموصل (العراق) ١٩٣٩م .
- دكتوراه في التاريخ الإسلامي من جامعة عين شمس ١٩٦٨م .
- أستاذ التاريخ الإسلامي ومناهج البحث في جامعة الموصل سابقاً .
- كتب عدداً من الأبحاث والمؤلفات في التاريخ والفكر والأدب الإسلامي والنقد .
- يرى أن المنهج الذي تشكل العقل المسلم وفق مقولاته يقوم على السببية والقانون التاريخي والبحث التجريبي ، وأنه بدون منهج فليس ثمة طريق يوصل إلى الأهداف مهما بذل من جهد وقدم من عطاء .

مطابع الدوحة الحديثة